

المعهد القومي للآثار والفنون

جمعية صيانة جزيرة جربة

# أحمال الملتقى حول تراث جربة

(أفريل 1982)

## الفهرس

|    |                           |                                                                                                        |
|----|---------------------------|--------------------------------------------------------------------------------------------------------|
| 3  | محمد حسن                  | حول الجذور الاجتماعية والسياسية والبشرية للفرق الاباضية الموجودة بالجنوب التونسي في بداية العصر الوسيط |
| 13 | إبراهيم طلاي              | العلاقة بين سكان جربة ومزاب                                                                            |
| 19 | الشيخ سليمان داود بن يوسف | صلة جربة بواد مزاب                                                                                     |
| 25 | فرحات الجعيري             | ملاح عن الحركة العلمية عند الاباضية بجربة من الفتح الاسلامي سنة 47 هـ الى أواخر القرن الثاني عشر هجري  |
| 33 | الدكتور عبد القادر قرخان  | المناسبات العثمانية مع جزيرة جربة أثناء حكم سليمان القانوني                                            |
| 35 | فخار ابراهيم              | الجهود العلمية لعلماء جربة في وادي مزاب وكبريات المدن الجزائرية خلال العصر الوسيط                      |
| 39 | Yves Marquet              | إشارة الى صاحب الحمار في رسائل اخوان الصفاء                                                            |
| 48 | حبيب وداعة الحسناوي       | العلاقات السياسية بين طرابلس وجربة في القرن السادس عشر                                                 |
| 49 | الصادق بن مرزوق           | أبو ظاهر اسماعيل موسى الجيطالي : حياته ومآثره                                                          |
| 55 | الدكتور يحيى بوعزيز       | مقاومة جربة للغزوات الأوروبية في القرن السادس عشر                                                      |
| 73 | علي الزاوري               | وثيقتان عن تجارة جربة وصفاقس مع الشرق                                                                  |
| 79 |                           | الوثيقة الأولى : رسالة بن تعزيت الى الحاج محفوظ مقني                                                   |
| 83 |                           | الوثيقة الثانية : قائمة حساب الحاج محفوظ مقني                                                          |
| 87 | عبد الحكيم قفصي           | وثائق جديدة متعلقة بتاريخ جزيرة جربة وعلمائها                                                          |

# حول الجذور الاجتماعية والسياسية والبشرية للفرق الاباضية الموجودة بالجنوب التونسي في بداية العصر الوسيط

محمد بن حسن

## ملخص البحث

### طرح المشكلة :

تتمحور أهم الأحداث التاريخية للعصر الوسيط حول قضية الخلافة أو الامامة وما نتج عنها من ظهور مذاهب و فرق متعددة، سواء ذلك في شرق البلاد العربية الاسلامية أو غربها. فمذهب الاباضية الذي نشأ في العراق وانتشر انتشارا كبيرا في بلاد البربر لم يكن أحسن حظا من بقية المذاهب، اذ سرعان ما انشطر وتفرق إلى أجزاء عديدة. كيف نفسر ذلك؟

### المنهجية المتبعة :

هل أن هذه الحركات هي مجرد انشقاقات مذهبية كما ورد ذلك في أغلبية المصادر القديمة وبعض الدراسات الحديثة؟ ان قراءة جديدة لنفس هذه المصادر تمكنتنا من التعرف على المعطيات الاجتماعية الاقتصادية والسياسية والبشرية (قبلية) التي أفرزت هذه الحركات، كما تمكنتنا من تقييم صحيح لأهمية المعطى الفقهي الذي لم يبرز إلا في مرحلة ثانية.

### الاستدلال :

الحركة النكارية : ظهرت هذه الحركة في تاهرت وساندتها الفئات الشعبية تحت قيادة زعماء القبائل والأعيان، واكتست بهذا بعدا اجتماعيا وسياسيا واضحا علاوة على أنها أدت إلى صراع بين قبيلتي نفوسة و بني يفرن بالمغرب الأوسط.  
الحركة الخلفيّة : تعتبر حركة خلف بن السمع حركة سياسية انفصلت بمقتضاها جهة يفرن عن الامامة الرستمية وجبل نفوسة، وقد نتج عن هذا صراع مسلح بين بني يفرن والنفوسيين.  
الحركة النفاثية : يبدو البعد الاجتماعي واضحا في حركة نفاث بن نصر التي ظهرت في الجنوب التونسي، رافضة دفع الضرائب الثقيلة لتاهرت ومنكرة على الامام الرستمي بذخه وإهماله لشؤون البلاد.

### الخاتمة :

كيف يمكن تفسير محدودية هذه الحركات عموديا وأفقيا؟  
هل أن هذه الحركات التي التجأت في مرحلة ثانية الى جزيرة جربة واحتمت بها (خاصة النكارية والخلفية) قد حافظت على خصوصياتها الاجتماعية والسياسية التي قامت من أجلها أم هل أنها دخلت في مرحلة جديدة من الانغلاق والجمود؟

## (1) الجذور الاجتماعية للنكارية

إن الدارس لتاريخ النكاري يتعرض لعدة صعوبات منهجية منها عدم وجود مصنفات نكارية وأنحياز المصادر السنية والشيعية والوهبية وضآلة مادتها، وكذلك اختلاف العوامل المفسرة لها في الفترة الأولى عن العوامل التي أحاطت بها عند تحولها إلى جبل نفوسة وجربة.

والثابت أن يزيد بن فندين اليفرنى تمكن في نهاية القرن الثاني هجري من تكوين حركة معارضة للرستمين أطلق عليها أنصار عبد الوهاب بن رسم تسميات عديدة معادية : النكار هم امامة عبد الوهاب والنكاث لنكتهم بيعته والنجوية لاكتارهم الاجتماع والنجوى والشعبية نسبة إلى شعيب بن المعرف ومستأوة، ويبدو أنها مشتقة من قبيلة بربرية بهذا الاسم أما المعينون بالأمر فقد تسموا بالخبويين، وما زال هذا الاسم يطلق على إحدى قرى جربة.

أما أنصار عبد الوهاب، فقد أطلق عليهم اسم الوهبة التي زعم ابن الصغير أنها مرتبطة باسم الامام عبد الوهاب، على أن كثيرا من علماء الإباضية ومن الدارسين المعاصرين يشككون في صحة هذه الرواية ويعتبرون أن هذه التسمية مرتبطة بزعم الخوارج بالمشرك : عبد الله بن وهب الراسبي<sup>(1)</sup>.

والحقيقة أن جذور هذه الحركة التي ظهرت في تاهرت منذ تولي عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رسم (171 هـ/788 م) الامامة ترجع الى بداية تأسيس المدينة من قبل عبد الرحمن، ذلك أنه خلافة لما تورده المصنفات الإباضية من حصول اتفاق بين قبائل مداة وصنهاجة المستضعفة وعبد الرحمن، يقع بموجبه تسليم هذه القبائل الأرض لبناء المدينة مقابل أخذ الخراج على الأسواق<sup>(2)</sup>، خلافا لذلك فإن الامام يبدو قد استعمل القوة لافتكاك هذه الأراضي واغتصابها، مما أدى إلى وقوع نزاع مسلح بين الاثنين، وكانوا يبنون النهار، فاذا جن الليل واصبحوا، وجدوا بنيانهم قد تهدم<sup>(3)</sup>، ومنذ ذلك الفترة أصبح هذا الموضوع، على حد قول عبد الرحمن نفسه «لا يفارقه سفك دم ولا حرب أبدا»<sup>(4)</sup>، مما يفسر هشاشة القواعد التي قامت عليها هذه الدولة المخاطة بالعديد من الأعداء المتربصين بها.

كما أن حركة النكار ارتبطت منذ البداية بالتحول الاقتصادي الهام الذي طرأ على «معسكر» عبد الرحمن بن رسم، نتيجة انتعاش الفلاحة والتجارة الخارجية، خاصة من بلاد السودان<sup>(5)</sup>، مما أدى إلى بروز أرستقراطية ناشئة بالمدينة، وقد كانت غير متجانسة إذ أنها مكونة في آن واحد من فرس وعرب وأندلسيين وبربر. واثار موت عبد الرحمن بن رسم، انطلق الصراع من داخل هذه الطبقة ثم اتسعت أرجاؤه لاعتقاد كل اتجاه على بقية القوى الاجتماعية، وأصبح بذلك ذا شمولية كبرى تعدت المدينة واكتسحت الريف والقبائل البربرية.

لقد حرص عبد الرحمن قبل وفاته على تعيين مجلس للشورى على غرار جماعة الشورى التي اختارها عمر بن الخطاب. فكان أن اختار سبعة أشخاص مسعود الأندلسي وأبو قدامة يزيد بن فندين اليفرنى وعمران بن مروان الأندلسي وأبو الموفق سعدوس بن عطية وشكر بن صالح الكتامي ومصعب بن بدمان وعبد الوهاب بن عبد الرحمن<sup>(6)</sup>، والظاهر أن العامة والاكثريين «مالوا في البداية إلى تولية مسعود الأندلسي لكن هذا الأخير أرى ألا أن يتنازل عن حقه في الامامة رغم الدعم المقدم إليه من قبل العامة. وبعد مفاوضات مع عبد الوهاب دامت شهرين كاملين يبدو أن مسعود استسلم أمام اغراءات هذا الأخير، وتحول من منافس له إلى مدافع عنه، فنأدى بأن يكون عبد الوهاب إماما بلا قيد ولا شرط قائلا : «لا نعلم

(1) انظر ابن الصغير تاريخ الأئمة الرستمين الجامعة التونسية، 1976 ص 9 عمار الطالبي الموجز لأبي عمار الكافى الجزائر 1978، ج 30.

Lewicki : Art. Nukkar. In Ency. de l'Islam, Supplément, p 185-186

Lewicki : les subdivisions de l'Ibadiyya, I, : S.I., 1958, p. 73

(2) يذكر الشماخي أن الأرض التي بنيت فيها تاهرت هي ملك لمستضعفين من صنهاجة ومداة، وقد راوهم عبد الرحمن على البيع فامتنعوا «انظر : الشماخي : كتاب السير، تحقيق محمد حسن، الجامعة التونسية 1979 (نسخة مرقونة بالمكتبة الوطنية ج 1، ص 31. انظر ايضا : ياقوت : معجم البلدان، بيروت، 1957، ج 2، ص 9.

(3) انظر : البكري : المسالك، ص 67.

(4) كذا في البرادي : الجواهر المتقاة، ص 174 والشماخي : ن. م، ص 68.

(5) الحبيب الخنجاني : تاهرت، المجلة التونسية للعلوم الاجتماعية، 1975، ص 15 - 16.

(6) انظر : أبو زكرياء : كتاب السيرة المجلة الافريقية (بالفرنسية) 1960، ج 1، ص 133. الدرجيني طبقات المشايخ بالمغرب، تحقيق طلاي، قسنطينة 1974، ج 1، ص 16، الشماخي : ن. م، ص 30. الباروني : الانهار الرياضية، ج 2، ص 99.

شرطا في الامامة ألا أن يحكم بيننا بكتاب الله وسنة نبيه وآثار الصالحين» وهكذا علاوة على المفهوم الفقهي لقضية الشرط مثل مسعود إلى جانب عبد الوهاب الشق المتطرف من الارستقراطية الحاكمة، وأنكر كل نزعة ديمقراطية ونادى بالحكم المطلق فكان عبد الوهاب ملكا ضخما وسلطانا قاهرا وعلى يديه افترقت الاباضية<sup>(7)</sup>.

وقد أفرز هذا الموقف المتصلب ظهور معارضة بقيادة ابن فندين، وقد كان مطلبها الأساسي هو اشتراطها على الامام الا «يقطع أمرا دون مشورة جماعة من المسلمين معلومة»<sup>(8)</sup>، أي أنها تطالب بمجلس استشاري على غرار مجلس أبيه عبد الرحمن كما أنها ترغب في اعطاء أولوية تولي الامامة لمن هو أعظم، قال أبو عمار عبد الكافي في هذا الشأن : «وفي الامامة أيضا قال قائلون من أهل الشغب أن الامام اذا ولي أمر المسلمين، وفيهم من هو أعلم منه، أن امامته في زعمهم باطلة غير ثابتة... فقال أهل الشغب بهذا قد حانهم في الامامة العادلة الرستمية وحيدا عن اجابتها والدخول في طاعتها وطعننا في الدين...»<sup>(9)</sup>.

ولا يمكن أن نصدق ما ذكرته الرواية من أن ابن فندين اليفرنى بايع عبد الوهاب في البداية «لأن أمه يفرنية وطمع أن يؤثره على من سواه»، كما نستبعد أن يكون ابن فندين قد ثار لأسباب شخصية أي لعدم توليه أحد المناصب العليا<sup>(10)</sup>. ويبدو عكس ذلك أن عبد الرحمان بن رسم كان قد حسب كل حساب لقبيلة بني يفرن التي تعتبر من أهم بطون زناتة. وقد كان موطنها الأصلي بجهة طرابلس، ولم تتحول مجموعات منها إلى تلمسان وجبل أوراس الا زمن الاضطرابات السياسية التي «دوخت» بلاد المغرب في نهاية القرن الأول وبداية الثاني هجري وتمكن أبو قرة اليفرنى المغلي من تأسيس دولة صقرية بتلمسان أصبحت مجاورة لتاهرت، وتم ذلك بين سنتي 140 هـ و 148 هـ<sup>(11)</sup> وسعي عبد الرحمان إلى كسب ثقة بني يفرن، فصاهرهم وتزوج من امرأة يفرنية قد تكون أميرة من اميرات تلمسان، وقد جاء هذا الزواج السياسي علي غرار زلف أروى ابنة الامام الرستمي الى مدرار بن اليسع<sup>(12)</sup> كما حرص عبد الرحمن على تعيين أحد اليفرنين في مجلس الشورى، وهو ابن فندين.

لكن هذه الدبلوماسية لم تغلح، ووقع المكروه من ابن فندين ذاته ومن نفس هذه القبيلة التي يبدو أنها تفرغت لمناصرة ابن فندين بعد موت أبي قرة واثار افتكاك تلمسان من طرف محمد بن خزم بن صولات سنة 173 هـ<sup>(13)</sup> وقد عمر ابن فندين طويلا بعد هذه الأحداث ولم يتوف الا حوالي سنة 188 هـ/804 م.

كما ارتبطت حركة النكار بالأحوال الاجتماعية والسياسية الجديدة.

ويمكن أن نوضح هذا الرأي بتتبع تطور هذه الحركة الاجتماعية التي نشأت في البداية في المدينة ثم تحولت الى «الجبال حيث كسبت أنصارا وكونت قواعد عسكرية وتسلمت قال الشماخي : «وأكثرها الدخول الى المدينة بالجماعات... ثم صاروا يدخلون المدينة بالسلاح»<sup>(14)</sup> واقتحمت الحركة في مرحلة ثالثة المدينة من جديد وحاولت كسب مواقع وقواعد فيها

(7) انظر : ابن الصغير : تاريخ الأئمة الرستمين بتاهرت، الجامعة التونسية 1976، ص 9.

(8) انظر : الشماخي، ن. م. ص 30. وكذا في أبي زكرياء : ن. م. ص 134 والدرجيني ج 1، ص 47.

(9) انظر عمار الطالبي : الموجز لابن عبد الكافي، الجزائر، 1978، ج 2 ص 258.

(10) انظر : محمود اسماعيل : الخوارج في بلاد المغرب، الدار البيضاء، 1976، ص 57 والهامش رقم 324.

(11) جاء في تاريخ ابن خلدون (بيروت 1968، ج 7، ص 22) ما يلي : «وبنو يفرن هؤلاء من شعوب زناتة، وأوسع بطونهم، وهم عند نسبة زنابة بنو يفرن بن يصلتين من مسرا بن زاكيا بن ورسك بن الذيرت بن جانا، واخوته مغراوة وبنو نانو وبنو واسين والكل بنو يصلتين ويفرن في لغة البربر الغار... وأما شعوبهم فكثير، ومن أشهرهم بنو واركوا ومرغيصة. وكان بنو يفرن هؤلاء لعهد الفتح أكبر قبائل زناتة وأشدّها شوكة، وكان منهم بالفريقية وجبل أوراس والمغرب والأوسط بطون وشعوب ثم انتقض بنو يفرن تلمسان ودعوا الى الخارجية وبايعوا أبا قرة كبرهم بالخلافة سنة 148 هـ. انظر أيضا :

Lewicki : Art. Banû Ifrân, In Encycl. de l'Islam. T. III, P.1065-1070.

Bulliet : Botr et Baranes. In Annales E.S.C., 1980; p. 104-114.

(12) انظر : ابن خلدون، ن. م. ج. 6، ص 268.

(13) يبدو أن موت أبي قرة وقع سنة 155 هـ، تاريخ حملة يزيد بن حاتم علي الخوارجي قال ابن خلدون (ج 7، ص 25). «وتوغل يزيد بن حاتم في المغرب ونواحيه وأنحنى في أهله إلى أن استكانوا واستقاموا ولم يكن لبني يفرن من بعدها انتفاض» انظر أيضا مقال : بنو فران : ن. م. (بالفرنسية).

(14) انظر : الشماخي : ن. م. ص 34.

## (1) الجدور الاجتماعية للنكارية

إن الدارس لتاريخ النكاري يتعرض لعدة صعوبات منهجية منها عدم وجود مصنفات نكارية وانحياز المصادر السننية والشيعية والوهبية وضالة مادتها، وكذلك اختلاف العوامل المفسرة لها في الفترة الأولى عن العوامل التي أحاطت بها عند تحولها إلى جبل نفوسة وجربة.

والثابت أن يزيد بن فندين اليفرنى تمكن في نهاية القرن الثاني هجري من تكوين حركة معارضة للرستميين أطلق عليها أنصار عبد الوهاب بن رستم تسميات عديدة معادية : النكار هم امامة عبد الوهاب والنكاث لنكثهم بيعته والتجوية لاكثرهم الاجتماع والنجوى والشيعية نسبة إلى شعيب بن المعرف ومستأوة، ويبدو أنها مشتقة من قبيلة بربرية بهذا الاسم أما المعينون بالأمر فقد تسموا بالمحبوبين، وما زال هذا الاسم يطلق على إحدى قرى جربة.

أما أنصار عبد الوهاب، فقد أطلق عليهم اسم الوهبة التي رزم ابن الصغير أنها مرتبطة باسم الامام عبد الوهاب، على أن كثيرا من علماء الإباضية ومن الدارسين المعاصرين يشككون في صحة هذه الرواية ويعتبرون أن هذه التسمية مرتبطة بزعم الخوارج بالمشرق : عبد الله بن وهب الراسبي<sup>(1)</sup>.

والحقيقة أن جذور هذه الحركة التي ظهرت في تاهرت منذ تولي عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم (171 هـ/788 م) الامامة ترجع الى بداية تأسيس المدينة من قبل عبد الرحمن، ذلك أنه خلافة لما توردته المصنفات الإباضية من حصول اتفاق بين قبائل مداسة وصنهاجة المستضعفة وعبد الرحمن، يقع بموجبه تسليم هذه القبائل الأرض لبناء المدينة مقابل أخذ الخراج على الأسواق<sup>(2)</sup>، خلافا لذلك فإن الامام يبدو قد استعمل القوة لافتكاك هذه الأراضي واغتصابها، مما أدى إلى وقوع نزاع مسلح بين الاثنين، وكانوا يبنون النهار، فاذا جن الليل واصبحوا وجدوا بنيانهم قد تهدم<sup>(3)</sup> ومنذ ذلك الفترة أصبح هذا الموضوع، على حد قول عبد الرحمن نفسه «لا يفارقه سفك دم ولا حرب أبدا»<sup>(4)</sup> مما يفسر هشاشة القواعد التي قامت عليها هذه الدولة المحاطة بالعديد من الأعداء المترصين بها.

كما أن حركة النكار ارتبطت منذ البداية بالتحول الاقتصادي الهام الذي طرأ على «معسكر» عبد الرحمن بن رستم، نتيجة انتعاش الفلاحة والتجارة الخارجية، خاصة من بلاد السودان<sup>(5)</sup>، مما أدى إلى بروز أرستقراطية ناشئة بالمدينة، وقد كانت غير متجانسة إذ أنها مكونة في آن واحد من فرس وعرب وأندلسيين وبربر. واثار موت عبد الرحمن بن رستم، انطلق الصراع من داخل هذه الطبقة ثم اتسعت أرجاؤه لاعتقاد كل اتجاه على بقية القوى الاجتماعية، وأصبح بذلك ذا شمولية كبرى تعدت المدينة واكتسحت الريف والقبائل البربرية.

لقد حرص عبد الرحمن قبل وفاته على تعيين مجلس للشورى على غرار جماعة الشورى التي اختارها عمر بن الخطاب. فكان أن اختار سبعة أشخاص مسعود الأندلسي وأبو قدامة يزيد بن فندين اليفرنى وعمران بن مروان الأندلسي وأبو الموفق سعدوس بن عطية وشكر بن صالح الكتامي ومصعب بن بدمان وعبد الوهاب بن عبد الرحمن<sup>(6)</sup> والظاهر أن العامة والاكثريين «مالوا في البداية إلى تولية مسعود الأندلسي لكن هذا الأخير أبى إلا أن يتنازل عن حقه في الامامة رغم الدعم المقدم إليه من قبل العامة. وبعد مفاوضات مع عبد الوهاب دامت شهرين كاملين يبدو أن مسعود استسلم أمام اغراءات هذا الأخير، وتحول من منافس له إلى مدافع عنه، فنادى بأن يكون عبد الوهاب إماما بلا قيد ولا شرط قائلا : «لا نعلم

شرطا في الامامة إلا أن يحكم بيننا بكتاب الله وسنة نبيه وآثار الصالحين» وهكذا علاوة على المفهوم الفقهي لقضية الشرط مثل مسعود إلى جانب عبد الوهاب الشق المتطرف من الأرستقراطية الحاكمة، وأنكر كل نزعة ديمقراطية ونادى بالحكم المطلق فكان عبد الوهاب ملكا ضخما وسلطانا قاهرا وعلى يديه افرقت الإباضية<sup>(7)</sup>.

وقد أفرز هذا الموقف المتصلب ظهور معارضة بقيادة ابن فندين، وقد كان مطلبها الأساسي هو اشتراطها على الامام الا «يقطع أمرا دون مشورة جماعة من المسلمين معلومة»<sup>(8)</sup>، أي أنها تطالب بمجلس استشاري على غرار مجلس أبيه عبد الرحمن كما أنها ترغب في اعطاء أولوية تولي الامامة لمن هو أعظم، قال أبو عمار عبد الكافي في هذا الشأن : «وفي الامامة أيضا قال قائلون من أهل الشغب أن الامام اذا ولي أمر المسلمين، وفيهم من هو أعلم منه، أن امامته في زعمهم باطلة غير ثابتة... فقال أهل الشغب بهذا قد حامنهم في الامامة العادلة الرستمية وحيدا عن اجابتها والدخول في طاعتها وطعنا في الدين...»<sup>(9)</sup>.

ولا يمكن أن نصدق ما ذكرته الرواية من أن ابن فندين اليفرنى بايع عبد الوهاب في البداية «لأن أمه يفرنية وطمع أن يؤثره على من سواه»، كما نستبعد أن يكون ابن فندين قد ثار لأسباب شخصية أي لعدم توليه أحد المناصب العليا<sup>(10)</sup>. ويبدو عكس ذلك أن عبد الرحمن بن رستم كان قد حسب كل حساب لقبيلة بني يفرن التي تعتبر من أهم بطون زناتة. وقد كان موطنها الأصلي بجهة طرابلس، ولم تتحول مجموعات منها إلى تلمسان وجبل أوراس الا زمن الاضطرابات السياسية التي «دوخت» بلاد المغرب في نهاية القرن الأول وبداية الثاني هجري وتمكن أبو قرة اليفرنى المغيلي من تأسيس دولة صقرية بتلمسان أصبحت مجاورة لتاهرت، وتم ذلك بين سنتي 140 هـ و148 هـ<sup>(11)</sup> وسعي عبد الرحمن إلى كسب ثقة بني يفرن، فصاهرهم وتزوج من امرأة يفرنية قد تكون أميرة من اميرات تلمسان، وقد جاء هذا الزواج السياسي علي غرار زف أروى ابنة الامام الرستمي الى مدرار بن اليسع<sup>(12)</sup> كما حرص عبد الرحمن على تعيين أحد اليفرنين في مجلس الشورى، وهو ابن فندين.

لكن هذه الدبلوماسية لم تفلح، ووقع المكروه من ابن فندين ذاته ومن نفس هذه القبيلة التي يبدو أنها تفرغت لمناصرة ابن فندين بعد موت أبي قرة واثار افتكاك تلمسان من طرف محمد بن خزم بن صولات سنة 173 هـ<sup>(13)</sup> وقد عمر ابن فندين طويلا بعد هذه الأحداث ولم يتوف الا حوالي سنة 188 هـ/804 م.

كما ارتبطت حركة النكار بالأحوال الاجتماعية والسياسية الجديدة. ويمكن أن نوضح هذا الرأي بتتبع تطور هذه الحركة الاجتماعية التي نشأت في البداية في المدينة ثم تحولت الى «الجبال حيث كسبت أنصارا وكونت قواعد عسكرية وتسلمت قال الشماخي : «وأكثرها الدخول الى المدينة بالجماعات... ثم صاروا يدخلون المدينة بالسلاح»<sup>(14)</sup> واقتحمت الحركة في مرحلة ثالثة المدينة من جديد وحاولت كسب مواقع وقواعد فيها

(7) انظر : ابن الصغير : تاريخ الأئمة الرستميين بتاهرت، الجامعة التونسية 1976، ص 9.

(8) انظر : الشماخي، ن. م. ص 30. وكذا في أبي زكرياء : ن. م. ص 134 والدرجيني ج 1، ص 47.

(9) انظر عمار الطالبي : الموجز لابن عبد الكافي، الجزائر، 1978، ج 2 ص 258.

(10) انظر : محمود اسماعيل : الخوارج في بلاد المغرب، الدار البيضاء، 1976، ص 57 والهامش رقم 324.

(11) جاء في تاريخ ابن خلدون (بيروت 1968، ج 7، ص 22) ما يلي : «وبنو يفرن هؤلاء من شعوب زناتة، وأوسع بطونهم، وهم عند نسبة زنابة بنو يفرن بن يسلتين من مسرا بن زاكيا بن ورسك بن الذيرت بن جانا، واخوته مغراوة وبنو ناز وبنو واسين والكل بنو يسلتين وفرن في لغة البربر الغار... وأما شعوبهم فكثير، ومن أشهرهم بنو واركوا ومرغيصة. وكان بنو يفرن هؤلاء لهده الفتح أكبر قبائل زناتة وأشدّها شوكة، وكان منهم بافريقية وجبل أوراس والمغرب والأوسط بطون وشعوب ثم انتفض بنو يفرن تلمسان ودعوا الى الخارجية وبايعوا أبا قرة كبيرهم بالخلافة سنة 148 هـ. انظر أيضا :

Lewicki : Art. Banū Ifrān, In Encycl. de l'Islam. T. III, P.1065-1070.

Bulliet : Botr et Baranes. In Annales E.S.C., 1980; p. 104-114.

(12) انظر : ابن خلدون، ن. م. ج. 6، ص 268.

(13) يبدو أن موت أبي قرة وقع سنة 155 هـ، تاريخ حملة يزيد بن حاتم علي الخوارجي قال ابن خلدون (ج 7، ص 25). «وتوغل يزيد بن حاتم في المغرب ونواحيه وانحنى في أهله إلى أن استكانوا واستقاموا ولم يكن لبني يفرن من بعدها انتفاض» انظر أيضا مقال : بنو قران : ن. م. (بالفرنسية).

(14) انظر : الشماخي : ن. م. ص 34.

(1) انظر ابن الصغير تاريخ الأئمة الرستميين الجامعة التونسية، 1976 ص 9 عمار الطالبي الموجز لأبي عمار الكافب الجزائر 1978، ج، ص 30.

Lewicki : Art. Nukkar. In Ency. de l'Islam, Supplément, p 185-186

Lewicki : les subdivisions de l'Ibadiyya, I, : S.I., 1958, p. 73

(2) يذكر الشماخي أن الأرض التي بنيت فيها تاهرت هي ملك لمستضعفين من صنهاجة ومداسة، وقد راودهم عبد الرحمن على البيع فامتنعوا «انظر : الشماخي : كتاب السير، تحقيق محمد حسن، الجامعة التونسية 1979 (ونسخة مرقونة بالمكتبة الوطنية ج 1، ص 31. انظر أيضا : باقوت : معجم البلدان، بيروت، 1957، ج 2، ص 9.

(3) انظر : البكري : المسالك، ص 67.

(4) كذا في البرادي : الجوهرة المنتقة، ص 174 والشماخي : ن. م. ص 68.

(5) الحبيب الحنجاني : تاهرت، المجلة التونسية للعلوم الاجتماعية، 1975، ص 15 - 16.

(6) انظر : أبو زكرياء : كتاب السيرة المجلة الافريقية (بالفرنسية) 1960، ج 1، ص 133. الدرجيني طبقات المشائخ بالمغرب، تحقيق طلاي، قسنطينة 1974، ج 1، ص 16، الشماخي : ن. م. ص 30. الباروني : الازهار الرياضية، ج 2، ص 99.

يضعون فيها السلاح ويجمعوا له<sup>(15)</sup> ولذا فقد ضمت الحركة فئات شعبية متنوعة وقد كان القاسم المشترك بينها هو معارضتها للضرائب الثقيلة التي تدفعها للرستميين<sup>(16)</sup> والاثراء الجديد لهؤلاء، وقد جاء على لسان عبد الوهاب نفسه ما يلي : « لو لم أكن أنا وابن جبري وابن زلفين لأغنينا بيت مال المسلمين لما علينا من الحقوق الشرعية » إذ كان الأول تاجرا كبيرا، له كثير من الذهب والفضة، والثاني مزارعا تبلغ زكاته في السنة الألف حمل من البر والشعير، أما الأخير فله ماشية تعد بمئات الألوف وقد ذكر له من الحميم وحدها 12.000<sup>(17)</sup>. وطبيعي أن ترغب هذه الفئات الفقيرة في التخلص من نفوذ أجنبي لا يعمل لصالحها، وكانت أن رفضت الخروج من المدينة واعتبرت أن الأرض أرضها قائلة : « هذه مدينتنا وتلك منازلنا ». وهكذا فإن هذه الحركة قد اكتست في آن واحد صبغة اجتماعية وليس « الانشقاق المذهبي » الوارد في المصادر الإباضية سوى الستار الذي تكن وراءه حركة اجتماعية تتوفر فيها كل المكونات والظروف الموضوعية.

وقد احتوت التركيبة الاجتماعية للنكار على صغار الحرفيين بالمدينة والفلاحين بالريف وقد تطلب انضمام هذه القوى الاجتماعية الى حركة النكار عمل توعية واقتناع كبير : « فزينا للضعفاء أمورا وزخرفوا لهم ما يحسبونهم به محققين فصاروا ينتظرون الغرة والغفلة »<sup>(18)</sup>.

والى جانب اعتماد هذه الحركة على ذكاء ابن فندين وبراعته، فإنها التجأت الى إباضية المشرق للتحكيم، وهو دليل في حد ذاته على وجود فراغ أيديولوجي وسطحية انتشار العبادى الإباضية بالمغرب، على أن البعد الفقهي لهذه الحركة الاجتماعية لم يقع تحديده إلا في مرحلة ثانية.

وهذا الربيع بن جيب، زعيم الإباضية بمكة، يترث في اصدار فتوى لصالح عبد الوهاب ويأخذ أخيرا موقفا متوسطا بين الاعتراف بالامامة وانكارها<sup>(19)</sup> ويأخذ شعيب بن المعرف، كبير فقهاء المذهب بمصر موقفا أكثر وضوحا فيتحول الى تاهرت، وينضم الى صفوف النكار<sup>(20)</sup> مما أدى الى تدعيم الحركة ومنحها الشرعية الفقهية واكتمالها، إذ بينا تزعم ابن فندين القيادة العسكرية، تولى شعيب التنظيم الإيديولوجي.

وهكذا وصلت الحركة الى مرحلة متطورة من النضج السياسي، جعلها تمر الى المرحلة العسكرية.

وقد حاول النكار في الدور الأول التخلص من عبد الوهاب قتلا، فتوافقوا على غدر الامام والتمسوا الحيلة في الوصول الى ذلك<sup>(21)</sup>.

وفي مرحلة ثانية، سعى النكار الى دخول المدينة والقيام بحركة مسلحة منتهزين فرصة خروج الامام منها، لكن انصاره تمكنوا من الذود عنها وأجطت العملية.

ولقد كان دخول المدينة من قبل النكار أمرا حاسما، لو وقع، لانجر عنه تغيير جذريا في حياة هذه الدولة. وعلاوة على ما تذكره المصادر الإباضية من استبسال أفلح في الذود عن المدينة والمبالغة في شجاعته فالواقع أن تحصين المدينة واقامة سور حولها فيه أربعة أبواب قد ساعد كثيرا على حسم الخلاف لصالح استقرارية بني رستم<sup>(22)</sup>.

ولم تنته هذه الحركة رغم مقتل زعيمها ابن فندين وكثرة القتلى في صفوف النكار، وقد بلغ عددهم اثنتي عشر ألفا حسب الشماخي وما صلاة الامام على جميع الموتى « طمعا في اجتماع الكلمة بعد الفرقة » إلا دليل على عدم حسم الموقف نهائيا لصالح الرستميين. وان تمكن بنو رستم من إبعاد شبح الخطر عن المدينة فإن هذه الحركة التي استمدت شرعيتها من النزعة الاستقلالية البربرية<sup>(23)</sup> قد وجدت التربة الخصبة كي تنمو وترعرع في جهة تلمسان وجبال أوراس بين أفراد قبيلة بني

(15) ن. م. ص 35.

(16) ن. م. ص 39، وفيه رفض النكار دفع الصدقة لمبعوث عبد الوهاب.

(17) انظر : الباروني : الأزهار الرياضية، ج 2 ص 137.

(18) الشماخي : ن. م. ص 36.

(19) ن. م. ص 33 : « وله ما صنع الا أشياء عابوها عليه وأمره أن يرجع عنها » انظر محمود اسماعيل : الخوارج ص 157.

(20) انظر التفاصيل في محمود اسماعيل : الخوارج، ص 157 — 158. ويقول بالخصوص ومهما يكن من أمر فإن ما تذكره المصادر الإباضية من أن شعيب خرج من مصر في نفر من أصحابه بغير مشورة من مشائخ مصر طمعا في الامارة أو مبالغ فيه، والأقرب للتصديق أنه توجه لنصح عبد الوهاب وإنهاء الخلاف في تاهرت، فلما لم يجبه، انضم الى ابن فندين.

(21) انظر، أبو زكرياء : ن. م. 1966، ج 1، ص 139 — 141. الدرر جيني. ن. م. 1. ص 51 — 53، الشماخي : ن. م. ص 34.

(22) انظر. البكر. نفس المصدر، ص 66 « محمود اسماعيل »، نفس المصدر ص 158.

(23) تبدو النزعة البربرية لهذه الحركة فيما قاله أفلح عند قتله لابن فندين « ما أقوى رأسك يا بربري يا مشوم » انظر : الباروني : ن. م. ص 2، ص 111.

البرية التي ما انفكت تعد للحركة النكارية الكبرى، فكانت أمامة منشقة عن تاهرت في أواخر القرن الثالث هجري بقيادة أبي عمار عبد الحميد الأعمى، ثم ترقبت انتهاء الدولة الوهبية لاعلان أحد تلاميذ أبي عمار وهو أبو يزيد مخلد بن كيداد اليفرنى الثورة في وجه سلطة العبيدين.

على أن النكارية لم تجد تجاوبا في المغرب الأوسط والجريد فحسب بل وكذلك في أماكن بربرية نائية عن تاهرت. وكان أن انتقل شعيب بن المعرف من تاهرت الى جهة طرابلس بعد مقتل ابن فندين وذلك للتعريف بالقضية وكسب أنصار في الأماكن الموجودة على طريق الحج، واستقبل الحجاج للدعاية لهذا الغرض وإظهار البراءة من عبد الوهاب<sup>(24)</sup>.

واستمر شأن النكارية بعد ذلك طويلا في جبل نفوسة وبلاد الجريد وجزيرة جربة<sup>(25)</sup> التي أصبحت الملاذ الأخير لهذه الحركة بعد محاصرتها في البر على أنها لم تنتشر انتشارا واسعا بالجزيرة الا خلال الحركة النكارية الثانية بقيادة أبي يزيد مخلد بن كيداد اليفرنى، ابتداء من سنة 331 هجري وان تمكن الفاطميون من الاستيلاء من جديد على الجزيرة سنة 341 هجري، فانهم عجزوا عن القضاء على النكار هناك، وبقيت نزعتهم الاستقلالية حية في الفترة الزيرية.

## (2) المحتوى السياسي للحركة الخلفية الانفصالية

ان كلا من الصراع على النفوذ والأوضاع الاجتماعية المتردية التي أفضت الى حركة النكار في تاهرت هما اللتان تفسران تصدع وحدة جبل نفوسة وعصيان خلف بن السمعح للامامة الرستمية، اثر موت أبيه السمعح وهو عامل الرستميين على الجبل.

فالخلفية هي حركة ذات طابع سياسي واجتماعي ولم تكن لها خاصيات فقهية تميزها عن الوهبية، وقد انتشرت منذ نهاية القرن الثاني وبداية الثالث هجري في قسم كبير من جبل نفوسة (يفرن وكيكلة وبابل وتاكبال) وزواغة، واستمر وجودها حتى القرن السادس هجري<sup>(26)</sup>.

ولم يكن دور السواد الأعظم من نفوسة في هذه المرحلة دور موالية وطاعة للسلطة المركزية بتاهرت، وقد أدى عامة الناس إلا أن يختاروا خلف بن السمعح عاملا عليهم وقد كان يتحلى بشعبية فائقة<sup>(27)</sup>.

ولما رفض عبد الوهاب الموافقة على هذا الاختيار، تحولت الحركة الى مطالبة باستقلالية الجهة الشرقية من جبل نفوسة عن تاهرت ومبايعة خلف اماما وعدم الاعتراف بامامة عبد الوهاب بن رسم.

وترجع أسباب هذا الانفصال الى بعد المسافة الفاصلة بين البلدين<sup>(28)</sup> وإلى محاولات الهيمنة التي قامت بها تاهرت في هذه الجهة التي تسربت فيها النكارية من قبل، ولم تفلح زيارة عبد الوهاب للجبل لتأمينه واحتوائه. ولا نستبعد أن يكون في نية خلف السيطرة على الجهات التي كانت بيد جده أبي الخطاب واعادة بناء دولة إباضية كبرى<sup>(29)</sup> مما أثار تخوفات عبد الوهاب وجعله يرفض ما استباحه لنفسه قد تزعمت على التوالي الحركة النكارية ثم خليفية وتصدت في آن واحد للنفوسيين والفرس. ذلك أنه منذ زمن يرجع الى الفترة البيزنطية، تمكن بنو يفرن من السيطرة على شتات من القبائل البربرية الأخرى وتكوين « كنفدرالية » يفرنية موطنها « أرض زناتة » بجهة طرابلس. ويبدو أن مقر بني يفرن القديم يوجد بوسط يفرن، شرقي جبل نفوسة، حيث المنازل الكهفية والغيوان القديمة المسماة بالبربرية يفرى — أفرى — يفرن، وهكذا اشتقت تسمية القبيلة من نمط المنازل التي تسكنها<sup>(30)</sup>، ومهما يكن من أمر، فإن الحركة الخلفية اعتمدت أساسا على هذه القبيلة الزناتية. أضف الى ذلك، أنها دليل قاطع على عضوية العلاقات الواهية القائمة بين المناطق الإباضية النائية وتاهرت.

(24) انظر : الشماخي : ن. م. ج 1، ص 37.

(25) انظر Lewicki : la répartition géographique des groupements ibadites... In R.O., 1957, p. 314.

(26) انظر : Lewicki : les subdivisions de l'Ibadiyya. In Studia Islamica, 1958. p. 71-82.

(27) انظر : أبو زكرياء : ن. م. 1960، ج 1، ص 159.

(28) انظر : ن. م. ص 162، الدرر جيني : ن. م. ج 1، ص 74 الشماخي : ن. م. ص 67، (واعتلوا أن حوزة طرابلس منقطعة عن حوزة تاهرت وبعدة عنها).

(29) انظر : Lewicki : Etudes Ibadites... In R.O., 1961, p. 115.

(30) انظر : ابن خلدون : ن. م. ج 7، ص 22 « ويفرن في لغة البربر هو الغار ».

وبالتالي فإن جوهر الخلافة لا يكمن «في حقوق الرعية في تعيين عمالها وشرعية وجود إمامين في وقت واحد»<sup>(31)</sup>، بقدر ما يكمن في الأوضاع البشرية والسياسية الجغرافية التي فرضت فصل هذا الجزء الكبير من ليبيا عن الجزائر، وكذلك الأوضاع الاجتماعية التي امتازت بتحول نسبة من ثروات الجبل إلى تاهرت في شكل ضرائب، وهكذا بادرت العامة ومن لا بصيرة له بالأمور إلى تقديم ولده خلف «والاعتراف به إماماً، فيما تمسك أهل الصلاح» من أمثال أبي المنيب اسماعيل بن درار وأيوب بن العباس، وهم خاصة من الفقهاء، بامامة عبد الوهاب<sup>(32)</sup>، كما تمسك بها فقهاء المشرق منكرين إمامة خلف، على حد قول المصادر الإباضية<sup>(33)</sup>.

وليس من الصدفة أن يقع اختيار عبد الوهاب على أحد فقهاء وأعيان نفوسة الجبل : أبي عبيدة عبد الحميد الجنائوي كي يكون عاملاً له على هذه الجهة، فقد جاء هذا الاختيار متماشياً مع حرج الظروف السياسية وصعوبتها إذ أن أبا عبيدة «شديد الشكينة قوي العريكة»<sup>(34)</sup>، وهو رجل الساعة ذو تفكير عسكري. على أن ميزان القوى لم يكن في صالح أبي عبيدة وجماعته الذين كانوا خاصة من كبار الفقهاء النفوسيين الموالين للرستميين والمنتمين بحكمهم، من أمثال أبي زكرياء التوكيتي الذي اشتهر بعلمه وجاهه، وقد قال فيه أحد أباضية المشرق الذي جاء الجبل متفقداً أحواله : «أبو العباس، الذي بارز الواسلية بتاهرت، تربطه بالامام علاقات وطيدة».

ونظراً لقلّة أنصار عبد الوهاب بالجبل وانعزاهم، رفض أبو عبيدة الجنائوي الحكم قائلاً : «أنا ضعيف، ولا أطيق القيام بأمر المسلمين»<sup>(35)</sup>.

ولذا وقفت السلطة المركزية عاجزة عن القضاء على هذه الحركة الانفصالية وأوصت أبا عبيدة أن يبقى في موقف دفاع ولا يهاجم خلفاً، «فيلطفه ويلينه إلا أن فاجاه فليدفعه»<sup>(36)</sup>.

وتواصلت هذه الحركة بنفس القوة في إمامة أفلح بن عبد الوهاب. وأصبحت تيمني مقر حكم خلف الذي استقر بالجهة الشرقية من جبل نفوسة، ومعلوم أن كمية التسافطات بهذه الجهة أكثر من كمية الجهة الغربية قال الشماخي : فأخصب الله جهته استدراجاً وأجذب جهة أبي عبيدة فمال الناس إلى خلف طلباً للخصب والرخاء»<sup>(37)</sup>. وهو سبب آخر يفسر تدفق الأنصار على خلف الذي اعتد بكثرة من معه وأعجب بعساكره مما جعله لا يكتفي بتحرير الجزء الشرقي نهائياً من سلطة الرستميين وأتباعهم، وتابع هجوماته لاحتواء كامل الجبل، وتابع استراتيجية خرب الاستنزاف مع العدو الذي تملكه الخوف وحاول الاكتفاء بمحافظته على الأمر الواقع. وأثر مهاجمة خلف لأبي عبيدة في عقر داره بقرية ادرف حاول المتضرر عبثاً إيقاف هذه الحرب للاعتراف ضمناً بحكم خلف قائلاً : إذا نزع يدك من الطاعة، فكُن في حيزك وأكون في حيزي»<sup>(38)</sup>.

لكن خلف أبقى إلا أن يواصل استنزافه لأنصار الرستميين مدة سنة كاملة إلى أن وقعت المعركة الحاسمة سنة 221 هجري<sup>(39)</sup> وتبعاً لأهمية الدور الذي لعبته مصالح الجوسسة العباسية في إفشال الثورات الإباضية الأولى، فإن الرستميين يبدو أنهم قد نسجوا على منوالهم. فاندست عيونهم في جيش خلف، وهذا أحدهم يخرج خلصة من جيش خلف، وينصح أبا عبيد بأن يتنحى إلى موقع استراتيجي بسفح الجبل<sup>(40)</sup>. وقد كان هذا أحد عوامل فشل الانفصال وانتصار أبي عبيدة رغم قلة أنصاره ولسنا هنا بصدد مناقشة ما تذكره المصنفات الإباضية للمنحازة حول عدد الجيشين والفارق الكبير بينهما<sup>(41)</sup>.

(31) انظر : محمود اسماعيل : ن، م، ص 164.

انظر أبو زكرياء : ن، م، ص 162. الدرجيني : ن، م، ص 70. الشماخي : ن، م، ص 67 - 68.

(32) انظر : أبو زكرياء : ن، م، 1960، ج 1، ص 160 - 162. الدرجيني : ن، م، ج 1، ص، الباروني الأزهري الرياضية ص 151.

(33) انظر : محمود الشماخي : ن، م، ص 76.

(34) ن، م، ص 60 وكذا في أبي زكرياء : ص 164.

(35) ن، م، ص 69 وكذا في أبي زكرياء : ص 163 والدرجيني : ص 71.

(36) ن، م، ص 70.

(37) انظر : أبو زكرياء : ن، م، ج 1، ص 66. الشماخي : ن، م، ج 1، ص 71.

(38) نفس الحالة السابقة.

(39) كذا في أبي زكرياء : ن، م، ص 170 والشماخي : ن، م، ص 76.

(40) انظر : أبو زكرياء : ن، م، ص 169. الدرجيني : ن، م، ص 75.

(41) يذكر الشماخي (ص 71) والباروني (الأزهري الرياضية، ص 166) أقل من 700 شخص في جيش أبي عبيد مقابل 40.000، وحسب الدرجيني (ج 1، ص 74) : 4000 فحسب.

لكن معلوم أن هذه المعركة تضيع حداً لنشاط الخلفية التي استمرت طويلاً بعد هذه الأحداث.

وبقي وطن يفرن متمتعاً باستقلالية فعلية ومعقلاً لهذه الحركة الاقليمية الانفصالية التي قادها ابن خلف في مرحلة ثانية بعد موت أبيه. وقد سعى عامل أفلح بن عبد الوهاب على الجبل، وهو العباس بن أيوب، إلى محاربة الخلفية بالجهة الشرقية من الجبل. فخرج إلى بني يفرن في جماعة من أعيان ومشائخ الوهبة منهم أبو زكرياء التوكيتي وأبو مهاصر الأفطمان<sup>(42)</sup>. والحقيقة لم تكن هذه المناوشات العسكرية في صالح وهبة نفوسة ولم يوجد تكافؤ بين القوتين حتى أن أبا مرداس مهاصر السدراتي التبرستي، أحد أنصار الرستميين المتحمسين فضل الانسحاب قبل بداية المعركة، وذلك بعد ما انعدمت ثقته في جيشه<sup>(43)</sup>.

ولم تقع المعركة الحاسمة إلا بعد تولي أبي منصور الياس النفوسي حاكم جبل نفوسة في عهد إمامة أفلح وأبي اليقظان وأبي حاتم على التوالي، وقد اشتهر الياس، وهو مسيحي الأصل<sup>(44)</sup>، بقساوته وشدته فكان يضرب الرجل المتهم وهو مظلوم<sup>(45)</sup> كما قوي نفوذ هذا العامل، وأتت الضرائب من الجهات التابعة للجبل، فكان أن أرسل عامل يختصب مع الشيخ ماطوس بن هارون ثلاثمائة دينار إلى أبي منصور، ولم يتورع هذا الأخير من تسليم هذا المبلغ إلى ماطوس دون استشارة بقية الأعيان أو أي شخص آخر<sup>(46)</sup> وباختصار فقد كان أبو منصور الياس الرجل المناسب لحسم الخلاف لصالحه والانتصار على ابن خلف في المعركة الأخيرة التي لم تقع في أواخر الحكم الرستمي<sup>(47)</sup>. قبل وفاة الامام أبي اليقظان (231 هـ) والعامل أبي منصور (283 هـ) وتبع أبو منصور هذه الحركة في معقلها الأخير بجربة وزواغة، وما انفك الخلفيون في هذه الأماكن النائية ينادون بالاستقلالية عن حكم نفوسة الجبل وتكوين مقاطعة تدير شؤونها بنفسها، حتى أن أحد الشيوخ الوهبة من بني يهراسن قال لهم عند احتفاء الطبيب بن خلف بزواغة في مكان يدعى ريصو : هل لكم أن تتركوا ريصو وتتحصنوا بجربة جربة، أو ترسلوا إلى الامام بتيهت يخرجكم من عمالة نفوسة ويفرد لكم عاملاً أو تدفعوا صاحبكم إلى نفوسة»<sup>(48)</sup>. والحقيقة أن الحركة الخلفية في هذه الحقبة لم تكن على ما كانت عليه فيما قبل، نتيجة انهزامها في مقاطعة يفرن والتجائها إلى زواغة وجربة.

ولم ينفع احتفاء ابن خلف بأحدى الحصون في جزيرة جربة إذ لعبت الجوسسة مرة أخرى دورها في هذه الحادثة، فوقع الاعلان عنه وتسليمه إلى أبي منصور الياس الذي سجنه. وبهذا تمكن من اجهاض الحركة الخلفية. على أن بقايا ضلول هذه الفرقة استمر وجودها طويلاً بعد انقراض الدولة الرستمية في الجنوب التونسي وخاصة بجربة. وقد مرّ الفقيه ابن زرقون بالمنطقة الساحلية المقابلة للجزيرة (جهة جرجيس حالياً وريصو في النص) فوجد بها الفرق الأربعة للإباضية بالمغرب أي مستأوة والخلفية والنفاثية والوهبة (أهل الدعوة).

ومن الطريف أن هذه الفرق اتفقت على تقسيم الوظائف السياسية والدينية بينها في هذا المكان ويبدو أن هذا التحالف وقع قبيل ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد اليفرنى وتحضيراً لها في النصف الأول من القرن الرابع هـ<sup>(49)</sup>، وعلى كل حال، فهو دليل قاطع على إمكانية التعايش السلمي بين هذه الفرق لأن الاختلافات بينها في مرحلة ثانية لم تعد حقيقية واقتصرت على مزايدات فقهية ومناظرات، بعدما أضاعت محتواها الاجتماعي والسياسي الذي انبنت عليه.

(42) انظر : الشماخي : ن، م، ص 66.

(43) ن، م، ص 86. وبلغنا أن العباس خرج إلى بني يفرن، فخشي أبو مرداس على العسكر أن يضعف فعلاً بالعباس، فقال له أرجع فأنى، فقال أن لم ترجع، صحت في العسكر.

(44) انظر : الشماخي : ن، م، ج 3، فهرس الاعلام.

(45) ن، م، ج 1، ص 136. فطلع أبو الليث الجنائوي إلى جادو فوجد أبا منصور فيه كتاب من تيمني... فقال : بسواد في قرطاس تضرب الناس يا الياس فقال له ما نفعل يا شيخ؟ قال ترده إلى السجن وأبعث إلى الأمناء... فلم يصح عنه ذلك وتبين أن الفاعل غيره.

(46) لم نهد إلى تحديد موقع يمت، والظاهر أنها تحريف لكلمة تيمني. هذا الحدث، انظر : الشماخي : ن، م، ج 1، ص 162 وهامش 7 من نفس الصفحة.

(47) كذا في أبي زكرياء : ن، م، 1960، ج 1، ص 331 - 332 والدرجيني : ن، م، ج 1، ص 84 - 85.

(48) انظر : الشماخي : ن، م، ص 115 وهامش 7 من نفس الصفحة. وول موقع ريصو أو زيزا، انظر الخريطة في Lewicki : Les ibadites en Tunisie. Rome. 1958 وهي الشبه الجزيرة الواقعة بين شط بوعرارة وسبخة المالح وفيها جرجيس حالياً ويبدو أن ريصو ليست إلا الشكل المغرب للكلمة البربرية تريت (Lac Tritonis).

(49) انظر الشماخي : ن، م، ج 1، ص 160.

كما بقيت الحركة الخلفية، علاوة على النكارية، حية يفرن في عهد المعز بن باديس (القرن الخامس)<sup>(50)</sup>، ويبدو أن حاكم الجبل : أبو يحيى زكريا الباروني (النصف الأول من القرن السادس هـ) قد استعمل الاغراءات المادية لتحويل سكان يفرن ككله وبابل وتاكبال الى مذهب الوهية<sup>(51)</sup>.  
وقد سبقه الى هذا العمل في جربة الفقيه الوهبي : أبو مسور يسجا بن يوجين إليها سنى منذ النصف الأول من القرن الرابع هجري، ذلك أن أكثر وهبية جربة اهتدت على يديه وكانت من قبل على مذهب الخلفية من الإباضية وكان يسمع بها من النكار أذى كثيرا لما يروونه أنه بها غريب...<sup>(52)</sup>.  
وأخيرا، فإن الحركة التي ظهرت في «وطن يفرن» كانت تهدف الى التحرير من سلطة الرستميين اذ انكرت امامة عبد الوهاب وتعدت على أفلاح وطالبت بخلعه لانقطاع الخوزات بينهم<sup>(53)</sup>. وهي بهذا شبيهة بحركة النكار التي شاركت فيها قبيلة بني يفرن مشاركة فعلية في تاهرت.  
وفي كلتا الحالتين، فقد اصطدم بنو يفرن بقبيلة منافسة قامت عليها دولة الفرس في تاهرت : وهي نفوسة وجاء الاصطدام الثاني بين القوتين مباشرة فكان أكثر عنفا.  
على أن ولاء نفوسة الجبل الظاهر للامامة الرستمية لم يمنع من ظهور حركة تزعمها أحد النفوسيين المستقرين بجالية قنطار في بداية القرن الثالث، وانتشرت خاصة عند نفوسة الجبل.

### (3) نفاث بن نصر وقيام حركة اجتماعية

تعترف المصادر الإباضية بالثقافة الواسعة لفرج بن نصر الويفوي المعروف بنفاث بن نصر النفومي القنطراوي ويتجر في علوم الفقه والكيمياء والهندسة (البناء)<sup>(54)</sup>، لكنها تزعم أن حركة نفاث تفسرها أغراض ذاتية، ذلك أنه طمع في ولاية قنطار، اثر موت أبي يونس وسيم النفوسي التزني. غير أن الامام أفلاح اثر تولية مسعد بن أبي يونس هذا المنصب، رغم عدم كفاءته وجبنه، اذ نراه يفضل عدم المشاركة في وقعة مانوا ويركن الى الراحة<sup>(55)</sup>، ومهما يكن من أمر، فإن الاسباب التي حركت نفاث وجماعته تكمن خاصة في محاربة استئراء الاستقرائية التاهرتية التي تخاذلت عن محاربة الأغالية، كما تخاذل أحد ممثليها، وهو سعد بن أبي يونس في القيام بهذه المهمة سنة 283 هـ. وهكذا فقد عاب نفاث على أفلاح بذخه<sup>(56)</sup> الذي تجلى في مظاهر عدة منها خروجه الى الصيد ولياسه الفاخر كما أنكر عليه خاصة ثقل الضرائب التي تؤخذ على الناس لصالح الدولة الرستمية، واستعمال العمال لاستعادة الجباية والحقوق الشرعية ومطالب بيت المال من الرعية<sup>(57)</sup>.  
وانطلاقا من الجالية النفوسية بقنطار، انتشر فكر نفاث بن نصر سرعة في قبيلة زواغة وفي جبل نفوسة حيث ذكر النفائية في أماكن عديدة منها ويغوا (نفاث بن نصر الويفوي) وتمصص (أبو نصر التمصصي) وتبن أنذر كل وبغطورة (أبو القاسم البغطوري)، ويكفي أن نلقي نظرة على خريطة الجبل<sup>(58)</sup>، حتى نتبين أن كل هذه المواقع توجد حول شروس بالجربة الغربية بجبل نفوسة. وهكذا فإن الحركة النفائية وجدت تربة خصبة في قبيلة نفوسة ذاتها، بينما انتشرت الخلفية خاصة في وطن بني يفرن.

ولنا وثيقة هامة حول كيفية انتشارها في جبل نفوسة ومحاولة الوهية التصدي لها ومحاصرتها قال الشماخي : وفي كتاب السير أن جماعة اجتمعت في تين أن دركل فيهم أبو نصر التمصصي وهو المفتي وفيهم نفاث بن نصر وهو يلقي عليهم من المسائل العويصة ما لا يفهمون. فأقبل مهدي (البغوري) وعمروس (بن فتح)، فأمسك فقال أبو نصر : الآن جاء السلوقان

اللذان يحرقان الحي من الذئب، وأما جروة أبي نصر فتنبج على الغنم وتهز يعني بالجروة نفسه لضعفه عن نفاث وبالغنم نفوسة وبالسوقيين مهديا وعمروسا<sup>(59)</sup>، وذكرنا أن دركل وتمصصي توجدان بالجربة الغربية من جبل نفوسة. ويبدو أن نفاثا الذي كان له مستوى ثقافي كبير، وقد قيل فيه ذو فهم عجيب وإطلاع وإدراك زائدين<sup>(60)</sup> قد اهتم أولا باقناع الفقهاء والمشائخ الذين كان لهم تأثير على عامة الناس، ولا يخفى علينا أن لهذا النفوسي جاها وثروة كبيرة علاوة على سعة علمه<sup>(61)</sup>، مما يزيد في قوة وقع مذهبه على الناس، سيما أنه كان يدعو الى أفكار فيها كثير من العدالة. وبقدر ما كان انتشار هذه الفكرة واكتساحه الأراضي الإباضية قويا، بقدر ما بذلت السلطة الرستمية كل جهدها للقضاء عليه، فأبو نصر التمصصي الذي ذكرناه «دار الجبل أربعين مرة يحذر الناس من فتنة نفاث»<sup>(62)</sup>، وهو دليل واضح على مدى انتشاره في الجبل. ولا غرابة أن تكثر التقارير المفصلة التي كان يقوم بها لقاء الوهية وعيون الرستميين بقنطار والجبل حول نشاطه وبيعوثها الى أفلاح بن عبد الوهاب ولقد وصلت محاصرة نفاث الى درجة خطيرة، مما جعلته يفر الى المشرق للتعليم<sup>(63)</sup> وربما كذلك للبحث عن أنصار لحركة من أباضية المشرق، كما فعل يزيد بن فندين النكاري. ويتجلى موقف الامام أفلاح واضحا من شدة الحركة في رسائله التي بعث بها الى عامله بنفزاوة وإلى نفاث بن نصر<sup>(64)</sup>. ففي الرسالة الأولى الموجهة الى ميال بن يوسف، عامل الرستميين على الجريد، اعتبر أفلاح هذا الفكر الذي تجاوز تعاليم المذهب عملا فوضويا وفتنة خطيرة اذ أن نفاث «هجم على ما لا يحل له، فكل شيء خطر على قلبه تكلم به مصيبا كان أو مخطئا وهو راكب مشكلات يخطط خبطة عشواء كحاطب ليل لا يدري ما يحطب».

ولذا وجب مقاومتها، فحث عماله على ذلك باعتبار أنهم قصروا في عملهم هذا وأوصاهم بمنع نفاث من مخالطة الناس ومحاصرة الحركة قائلا : لقد كان من مضى قبلكم من المسلمين لا يدعون مثل هذا يدخل مجالسهم ولا يشهد جماعتهم مقصيا ومبعدا مدحورا...

وبقيت مصالح الجوسسة الرستمية في الجهة باتصال مباشر مع الامام لتخبره عن تطور الوضع وأعمال نفاث، فكثرت المكاتبات في حقه الى الامام من عماله وغيرهم ممن ائتمنهم وخصهم بمكاتبتهم وأخباره «وهذه رسالة ثانية وجهها الامام الى هاته العيون الساهرة في الجريد، وحرص على ألا يذكر اسم المرسل اليه، وجاء مكانه بياض حتى لا يفتضح أمره عند نفاث، ولم يأت رد أفلاح إلا بعد عديد من الرسائل التي وجهت إليه في شأن هذه «البدعة» أو «الفتنة» أو «الخلاف» والخروج عن طريق السلف من طرف غلام غر حدث لا تجربة له»، وكانت بحق معركة بين الأجيال، بين جيل يمثل أفلاح ويأمر بقبول سياسة الامر الواقع التي تخدم مصالحه، مع رفض كل تحول وتغيير، وجيل ثان من الشباب الذي أبي إلا أن تتغير لصالحه هذه الأوضاع الاجتماعية والسياسية.

وعلاوة على ما ذكرناه من أسباب، فهذا أفلاح يقول في رسالته المذكورة : ومن عاب عمالنا بخصلة من الخصال أو أنكر عليهم شيئا فليرفع ذلك الينا فنكون نحن الذين يغيرونه ان كان مما يغير وليس للرعية الوثوب على السلطان حتى ترفع ذلك الينا وهي ممارسات سلطوية.

شأت أن يستفرد الامام بالسلطة التنفيذية دون مشاركة الرعية في أخذ القرارات. كما جاء على لسان الامام مخاطبا نفاث في رسالة ثالثة : ان كل من ابتدع في ديننا خلاف أسلافنا ورغم أن عمالنا أساقفة وأنهم لا طاعة لهم في حال كتابتهم فهو محقوق بالبراءة، وقال له أيضا «وان كانت غايتك التصحيح، فانف عن نفسك ما رقى عليك وكن من جماعتنا وموافقي أسلافنا» وهكذا، فان تردى الأوضاع الاجتماعية والسياسية بالجربة وخاصة عجز تاهرت عن الوقوف في وجه الأغالية الذين

(59) انظر، الشماخي : السير، ص 57، 222، وذكر البرادي (الجوهري، ص 206) ان مهديا أحد من صد مكاييد نفاث ومنع كثيرا من تلك الأحداث.

(60) انظر : الباروني، الأزهار، الرياضية، ص 195.

(61) انظر الشماخي، السير، ص 58، «وفي سير أهل نفوسة أن مهديا وابن خالته فوجا تخاصما عند الامام بتبهرت فقال مهدي، خذ لي حقي من فرج فقد اشتغل بالدنيا وخفت على فوات الاخوة... انظر بقية الرواية ذكر الباروني (في الأزهار، ج 2، ص 206) انه كان غنيا ثريا.

(62) انظر : الشماخي، ن، م، ص 91.

(63) انظر : ن، م، ص 105 : واطلعت على بعض كتب الامام الى المشائخ في شأنه وقد أكلوا الكتب الى الامام في شأنه ثم أنه خائف، فانتقل الى المشرق ثم الى بغداد وله فيها أخبار في شدة الحفظ وكثرة العلم وجهله لديوان جابر الى الغرب.

(64) انظر : الباروني : الأزهار الرياضية، ص 199 — 206.

(50) ن، م، ج 1، ص 234.  
(51) ن، م، ج 2، ص 443.  
(52) ن، م، ج 1، ص 236.  
(53) انظر : الشماخي : ن، م، ج 1، ص 72 (أبو زكرياء : ن، م، 1960، ج 1، ص 168).  
(54) انظر : أبو زكرياء : ن، م، 1960، ج 2، ص 324 — 325.  
(55) انظر : الشماخي : ن، م، ج 1، ص 105.  
(56) قال الشماخي : ن، م، ج 1، ص 82 : وطعن عليه نفاث بن نصر عن قلة محاربت المسعودة وما هو فيه من خفض العيش وله في ذلك وسائل اطلعت على بعضها. انظر أيضا : حاجية الإباضية بالجريد، تونس 1976، ص 63.  
(57) انظر : الباروني : ن، م، ص 195.  
(58) انظر الخريطة بدراسة قمت بها حول قبيلة نفوسة.

كما بقيت الحركة الخلفية، علاوة على النكارية، حية يفرق في عهد المعز بن باديس (القرن الخامس)<sup>(50)</sup>، ويبدو أن حاكم الجبل : أبو يحيى زكريا الباروني (النصف الأول من القرن السادس هـ) قد استعمل الاغراءات المادية لتحويل سكان يفرن ككله وبابل وتاكبال الى مذهب الوهية<sup>(51)</sup>.

وقد سبقه الى هذا العمل في جربة الفقيه الوهبي : أبو مسور يسجا بن يوجين اليها سنى منذ النصف الأول من القرن الرابع هجري، ذلك أن أكثر وهبية جربة اهدت على يديه وكانت من قبل على مذهب الخلفية من الاباضية وكان يسمع بها من النكار أذى كثيرا لما يروونه أنه بها غريب...<sup>(52)</sup>.

وأخيرا، فإن الحركة التي ظهرت في «وطن يفرن» كانت تهدف الى التحرير من سلطة الرستميين اذ انكرت امامة عبد الوهاب وقدرت على أفلح وطالبت بخلعه لانتقاط الحوزات بينهم<sup>(53)</sup>. وهي بهذا شبيهة بحركة النكار التي شاركت فيها قبيلة بني يفرن مشاركة فعلية في تاهرت.

وفي كلتا الحالتين، فقد اصطدم بنو يفرن بقبيلة منافسة قامت عليها دولة الفرس في تاهرت : وهي نفوسة وجاء الاصطدام الثاني بين القوتين مباشرة فكان أكثر عنفا.

على أن وراء نفوسة الجبل الظاهر للامامة الرستمية لم يمنع من ظهور حركة تزعمها أحد النفوسيين المستقرين بجالية قنطار في بداية القرن الثالث، وانتشرت خاصة عند نفوسة الجبل.

### (3) نفاث بن نصر وقيام حركة اجتماعية

تعترف المصادر الاباضية بالثقافة الواسعة لفرج بن نصر الويفوي المعروف بنفاث بن نصر النفومي القنطراوي ويتجر في علوم الفقه والكيمياء والهندسة (البناء)<sup>(54)</sup>، لكنها تزعم أن حركة نفاث تفسرها أغراض ذاتية، ذلك أنه طمع في ولاية قنطار، اثر موت أبي يونس وسيم النفوسي التزني. غير أن الامام أفلح أثر تولية مسعد بن أبي يونس هذا المنصب، رغم عدم كفاءته وجنبه، اذ نراه يفضل عدم المشاركة في وقعة مانوا ويركن الى الراحة<sup>(55)</sup> ومهما يكن من أمر، فإن الاسباب التي حركت نفاث وجماعته تكمن خاصة في محاربة استئراء الاستقراطية التاهرية التي تخاذلت عن محاربة الأغالية، كما تخاذل أحد ممثليها، وهو سعد بن أبي يونس في القيام بهذه المهمة سنة 283 هـ. وهكذا فقد عاب نفاث على أفلح بذخه<sup>(56)</sup> الذي تجلى في مظاهر عدة منها خروجه الى الصيد ولباسه الفاخر كما أنكر عليه خاصة ثقل الضرائب التي تؤخذ على الناس لصالح الدولة الرستمية، واستعمال العمال لاستعادة الجبابة والحقوق الشرعية ومطالب بيت المال من الرعية<sup>(57)</sup>.

وانطلاقا من الجالية النفوسية بقنطار، انتشر فكر نفاث بن نصر سرعة في قبيلة زواغة وفي جبل نفوسة حيث ذكر النفائية في أماكن عديدة منها ويغوا (نفاث بن نصر الويفي) وتمصص (أبو نصر التميمي) وتبن أندركل وبغظورة (أبو القاسم البغظوري)، ويكفي أن نلقي نظرة على خريطة الجبل<sup>(58)</sup>، حتى نتبين أن كل هذه المواقع توجد حول شروس بالجبهة الغربية بجبل نفوسة. وهكذا فإن الحركة النفائية وجدت تربة خصبة في قبيلة نفوسة ذاتها، بينما انتشرت الخلفية خاصة في وطن بني يفرن.

ولنا وثيقة هامة حول كيفية انتشارها في جبل نفوسة ومحاولة الوهية التصدي لها ومحاصرتها قال الشماخي : وفي كتاب السير أن جماعة اجتمعت في تين أن دركل فيهم أبو نصر التميمي وهو المفتي وفيهم نفاث بن نصر وهو يلقي عليهم من المسائل العويصة ما لا يفهمون. فأقبل مهدي (البغوري) وعمروس (بن فتح)، فأمسك فقال أبو نصر : الآن جاء السلوقان

اللدان يحرسان الحي من الذئب، وأما جروة أبي نصر فتنبح على الغنم وتهز يعني بالجرورة نفسه لضعفه عن نفاث والغنم نفوسة وبالسوقيين مهديا وعمروسا<sup>(59)</sup>، وذكرنا أن دركل وتمصصي توجدان بالجبهة الغربية من جبل نفوسة.

ويبدو أن نفاثا الذي كان له مستوى ثقافي كبير، وقد قيل فيه ذو فهم عجيب وإطلاع وادراك زائد<sup>(60)</sup> قد اهتم أولا باقناع الفقهاء والمشايع الذين كان لهم تأثير على عامة الناس، ولا يخفى علينا أن لهذا النفوسي جاها وثروة كبيرة علاوة على سعة علمه<sup>(61)</sup>، مما يزيد في قوة وقع مذهبه على الناس، سيما أنه كان يدعو الى أفكار فيها كثير من العدالة.

ويقدر ما كان انتشار هذه الفكرة واكتساحه الاراضي الاباضية قويا، بقدر ما بذلت السلطة الرستمية كل جهدها للقضاء عليه، فأبو نصر التميمي الذي ذكرناه «دار الجبل أربعين مرة يحذر الناس من فتنة نفاث<sup>(62)</sup>»، وهو دليل واضح على مدى انتشاره في الجبل. ولا غرابة أن تكثير التقارير المفصلة التي كان يقوم بها فقهاء الوهية وعيون الرستميين بقنطار والجبل حول نشاطه وبعثونها الى أفلح بن عبد الوهاب ولقد وصلت محاصرة نفاث الى درجة خطيرة، مما جعلته يفر الى المشرق للتعليم<sup>(63)</sup> وربما كذلك للبحث عن أنصار لحركة من أباضية المشرق، كما فعل يزيد بن فندين النكاري.

ويتجلى موقف الامام أفلح واضحا من شدة الحركة في رسائله التي بعث بها الى عامله بنفزاوة والى نفاث بن نصر<sup>(64)</sup>. ففي الرسالة الأولى الموجهة الى مبال بن يوسف، عامل الرستميين على الجريد، اعتبر أفلح هذا الفكر الذي تجاوز تعاليم المذهب عملا فوضويا وفتنة خطيرة اذ أن نفاث «هجم على ما لا يحل له، فكل شيء خطر على قلبه تكلم به مصيبا كان أو مخطئا وهو راكب مشكلات يخطط خبطة عشواء كحاطب ليل لا يدري ما يحطب».

ولذا وجب مقاومتها، فحث عماله على ذلك باعتبار أنهم قصروا في عملهم هذا وأوصاهم بمنع نفاث من مخالطة الناس ومحاصرة الحركة قائلا : لقد كان من مضى قبلكم من المسلمين لا يدعون مثل هذا يدخل مجالسهم ولا يشهد جماعتهم مقصيا ومبعدا مدحورا...

وبقيت مصالح الجوسسة الرستمية في الجهة باتصال مباشر مع الامام لتخيره عن تطور الوضع وأعمال نفاث، فكثرت المكاتبات في حقه الى الامام من عماله وغيرهم ممن ائتمنهم وخصهم بمكاتبتهم وأخباره «وهذه رسالة ثانية وجهها الامام الى هاته العيون الساهرة في الجريد، وحرص على ألا يذكر اسم المرسل اليه، وجاء مكانه بياض حتى لا يفتضح أمره عند نفاث، ولم يأت رد أفلح إلا بعد عديد من الرسائل التي وجهت إليه في شأن هذه «البدعة» أو «الفتنة» أو «الخلاف» والخروج عن طريق السلف من طرف غلام غر حدث لا تجربة له»، وكانت بحق معركة بين الأجيال، بين جيل يمثل أفلح ويأمر بقبول سياسة الامر الواقع التي تخدم مصالحه، مع رفض كل تحول وتغيير، وجيل ثان من الشباب الذي أيا إلا أن تتغير لصالحه هذه الأوضاع الاجتماعية والسياسية.

وعلاوة على ما ذكرناه من أسباب، فهذا أفلح يقول في رسالته المذكورة : ومن عاب عمالنا بخصلة من الخصال أو أنكر عليهم شيئا فليرفع ذلك الينا فنكون نحن الذين يغيرونه ان كان مما يغير وليس للرعية الوثوب على السلطان حتى ترفع ذلك الينا وهي ممارسات سلطوية.

شأت أن يستفرد الامام بالسلطة التنفيذية دون مشاركة الرعية في أخذ القرارات. كما جاء على لسان الامام مخاطبا نفاث في رسالة ثالثة : ان كل من ابتدع في ديننا خلاف أسلافنا ورغم أن عمالنا أساقفة وأنهم لا طاعة لهم في حال كتابتهم فهو محقوق بالبراءة، وقال له أيضا «وان كانت غايتك التصحيح، فانف عن نفسك ما رقى عليك وكن من جماعتنا وموافقي أسلافنا» وهكذا، فان ترددي الأوضاع الاجتماعية والسياسية بالجبهة وخاصة عجز تاهرت عن الوقوف في وجه الاغلبية الذين

(59) انظر، الشماخي : السير، ص، 57، 222، وذكر البرادي (الجوهر، ص، 206) ان مهديا أحد من صد مكاييد نفاث ومنع كثيرا من تلك الأحداث.

(60) انظر : الباروني، الأزهار، الرياضية، ص 195.

(61) انظر الشماخي، السير، ص، 58، «وفي سير أهل نفوسة أن مهديا وابن خالته فوجا تخاصما عند الامام بتبهرت فقال مهدي، خذ لي حقي من فرج فقد اشتغل بالدنيا وخفت على فوات الآخرة... انظر بقية الرواية ذكر الباروني (في الأزهار، ج، 2، ص، 206) انه كان غنيا ثريا.

(62) انظر : الشماخي، ن، م، ص 91.

(63) انظر : ن، م، ص، 105 : واطلعت على بعض كتب الامام الى المشايخ في شأنه وقد أكتروا الكتب الى الامام في شأنه ثم أنه خائف، فانتقل الى المشرق ثم الى بغداد وله فيها أخبار في شدة الحفظ وكثرة العلم وجهله لديوان جابر الى الغرب.

(64) انظر : الباروني : الأزهار الرياضية، ص 199 - 206.

(50) ن، م، ج، 1، ص 234.

(51) ن، م، ج، 2، ص 443.

(52) ن، م، ج، 1، ص 236.

(53) انظر : الشماخي : ن، م، ج، 1، ص، 72 (أبو زكرياء : ن، م، 1960، ج 1، ص، 168).

(54) انظر : أبو زكرياء : ن، م، 1960، ج 2، ص 324 - 325.

(55) انظر : الشماخي : ن، م، ج، 1، ص 105.

(56) قال الشماخي : ن، م، ج 1 ص 82 : وطعن عليه نفاث بن نصر عن قلة محاربت المسعودة وما هو فيه من خفض العيش وله في ذلك

وسائل اطلعت على بعضها. انظر أيضا : حاجية الاباضية بالجريد، تونس 1976، ص 63.

(57) انظر : الباروني : ن، م، ص، 195.

(58) انظر الخريطة بدراسة قمت بها حول قبيلة نفوسة.

بدأوا في بسط نفوذهم على الجريد منذ سنة 224 هـ، كل هذا أدى الى قيام حركة اجتماعية وسياسية. على أن هذه الفكرة لم تصل الى مرحلة التطبيق ولم يكتب لها النجاح النهائي، لأنها نشأت في منطقة صراع سخنة سياسياً ولأن الامامة الرستمية أظهرت منها البراءة وأبعدتها واستعملت أنصارها بالجريد وجبل نفوسة لمحاربة صاحبها بكل الطرق، مما أجبر نفاث على الفرار بنفسه بعيداً عن تاهرت والجريد نحو المشرق وطبيعي أن يصيب هذه الحركة التي لم تتشكل بعد في قوة عسكرية الوهن والجمود، وأن تتحول فيما بعد من فكر اياخي اجتماعي وسياسي الى مذهب منغلِق عاجز عن التحرك على الساحة السياسية.

لكن رغم ذلك، بقيت عداوة الوهبة لهذا الفكر قوية فاعتبر أبو الخطاب وسيل الزواغي أحد فقهاء القرن الرابع هجري النكار والخلفية والنفاثية كفاراً<sup>(65)</sup>.

كما بذل فقيه وهي آخر معاصر له، وهو أبو الربيع سليمان بن زرقون كل جهده لمحاربة النفاثية في الجريد وجبل نفوسة، فكان يتحول من مكان الى آخر لهذا الغرض، ويحاول اقناع المشائخ خاصة بالعدول عن هذا المذهب وقد سبق أن ذكرنا مروره بربصوا وجد بها أربع فرق من الاباضية منها النفاثية. وقال مخاطباً جماعة من النفاثية بالجليل على رأسهم أبي القاسم البغطوري «شيخكم يوالي نفاثاً وأنتم توالون شيخكم، فكلكم نفاثيون»<sup>(66)</sup>.

وصفوة القول فإن القاسم المشترك لهذه الحركات الثلاثة القائمة ضد الدولة الرستمية، هي الأبعاد الاجتماعية والسياسية التي اكتسبتها في المرحلة الأولى سواء في تاهرت أو جبل نفوسة أو الجنوب التونسي.

كما كان مصير هذه الحركات متشابهاً: أن فشلها في تحقيق أهدافها في هذه الأماكن أدى بها للالتجاء في مرحلة ثانية — خاصة بالنسبة للنكار والخلفية — الى جزيرة جربة وذلك لأسباب عديدة. فهي بلاد بعيدة عن البر «من أعظم الجزائر خطراً وكان الناس لا يدخلون إليها إلا بالسفن قبل إعادة بناء القنطرة الرومانية من طرف السلطان الحفصي أبو فارس عبد العزيز محاولة منه لربط الجزيرة بتونس وضمتها نهائياً الى دولته ومنع الخطر المسيحي، ما تمكن بواسطتها من نشر المذهب المالكي بالجزيرة»<sup>(67)</sup>.

وتمتّع جربة بموقع استراتيجي هام فهي نقطة ربط بين جهة طرابلس وإفريقية ومحطة متوسطة للاتصالات الواقعة بين أباضية ساحل إفريقية وجهة طرابلس وهي كذلك مرفأً متقدماً في أرض إفريقية، يفتح على بقية البلدان والجزر المتوسطية، وقد سعى النورمان والألمانيون الى احتلالها في عديد المرات. كل هذه العوامل الجغرافية والسياسية تفسّر تحوّل الجزيرة الى ملاذ أخير للحركات الاباضية في فترة ثانية على أن هذه الفرق لم تحافظ على كل الخصوصيات التي قامت من أجلها في الأول ودخلت في مرحلة جديدة في التصارع والتنافس فيما بينها.

## العلاقة بين سكان جربة ومزاب

ابراهيم طلاي

بسم الله الرحمن الرحيم

جربة ومزاب... منطقتان متشابهتان في غالب سماتهما، توفرت لهما عوامل ودواعي عدة للاتصال والتعاون والمساعدة، رغم بعد المسافة التي بينهما وتقدر بـ: 1200 كلم.

واني في هذه الكلمة القصيرة أعرض على السادة المجتمعين في هذا الملتقى التاريخي الذي خصص للحديث عن الجزيرة وحضارتها وتاريخها عبر العصور أعرض لمحة عن العلاقة الودية والروابط الثقافية التي كانت بين سكان الجزيرة ومزاب في الجنوب الجزائري.

وسيكون حديثي مقتصرًا على فترة معينة من تاريخ الاسلام في هذه الربوع — شمال إفريقيا — ومن تاريخ جربة عبر العصور، هذه الفترة تبتدىء من عهد دخول الاباضية في حالة الكتمان واستقرارهم عليها<sup>(1)</sup> بعد تغلب الفاطميين عليهم وبسط نفوذهم على شمال إفريقيا في مطلق القرن الرابع الهجري.

واذا اقتصرنا على هذه الفترة ابتداء من مطلع القرن الرابع الى يومنا هذا، فلأن الموضوع ضيق تحت اطار علاقة جربة بمزاب، ومزاب لم يعرف العمران بالمعنى الصحيح، ولم يستقر فيه المزابيون قبل هذا التاريخ، وإلا فعلاقة جربة بالأقطار الأخرى من المواطن التي ساد فيها المذهب الاباضي وانتشر كجبل نفوسة وجبل دمر والجريد وأريغ ووارجلان وأوراس وتاهرت علاقتها بهذه المناطق كانت وطيدة قبل هذا التاريخ. وكانت جربة في تلك العهود تمثل جزءاً من أراضي تلك الدولة التي أنشأها سلف الاباضية الذين كان لهم النفوذ الواسع في تلك الأقطار.

ان التعاون والتآزر والأخذ والعطاء لا يتأتى بين مجتمعين متباعدين يمثل تلك المسافة التي ذكرنا إلا إذا توفرت لهما الأسباب وتهيأت الظروف المشجعة الحافزة على ذلك. جربة ومزاب قد توفر لهما من ذلك الشيء الكثير نخص بالذكر شيئين اثنين:

**أولاً:** يسود جربة ومزاب مذهب اسلامي واحد، فسكان المنطقتين غالبهم اباضية المذهب، فلا بد أن ينشأ عن المذهب

(1) يرى الاباضية أن المجتمع الاسلامي من ناحية الخلافة الاسلامية لا يخلو من إحدى الحالات الأربع: الظهور والدفاع والشرء، والأخيرة منها حالة الكتمان، وذلك عندما يعجز المسلمون فيصلون الى حالة من الضعف لا يستطيعون القيام بمهمام الخلافة الاسلامية، انظر عقيدة العزاية (مسالك الدين).

(65) جاء في رحلة التيجاني (الدار العربية للكتاب، ص 131 — 132) ما يلي: «خرجنا من مجازها المعروف بساحل البر المتبعد مقدار ثمانية أميال في البحر أكلها قصير تقطعه الخيل مشياً وفيه مواضع عميقة، لا يمكن الساجون الا قطعها سباحاً فهو مجاز خبيث لا يجوزه الاعراف به متكرر عليه، فاجتازنا نحن أولاً في السفن وشرع الناس في الجواز فأجازت السفن قوماً وأجازت الخيل آخرين مشياً وعوماً...

(66) ذكرت المصادر الاباضية المالكية تحت تسمية الحشوية، انظر الشماخي السير، ص 457 — 458.

(67) ت، م، ص 234.

## مؤسس نظام العزابة هو أول من سنّ سنة التعاون والتآزر بين مجتمعات الاباضية

لا يستطيع المتحدث عن تاريخ الاباضية في شمال افريقيا أن يغفل عن نظام العزابة وأثره وما له من فضل في جمع كلمتهم، وحفظ كياناتهم الاجتماعية من الزيف، والابتعاد عن نهج الاسلام، وهو الحافظ القوي على تكوين حركة دؤوب يتجلى فيها سمات التعاون والتآزر والتوجيه بين تلك المجتمعات ولقد أنشأه مؤسسه رحمه الله الشيخ الامام محمد بن بكر القرطاني الريفي مستقرًا ووفاته سنة 440 هـ — 1048 م ليحفظ كيان هذا المجتمع، ويقوم بمهمة التوجيه والاصلاح، يتأشى مع حالة الكتان، نظام يشمل النواحي الاجتماعية دون أن يمس بالجانب السياسي تاركًا هذا الجانب لمن يتولى شؤون السياسة أو يتغلب عليها. «فعاشرت الاباضية في هذه الأمكنة دون أن يكونوا نظاما سياسيا أو يدعوا الى تكوينه»<sup>(1)</sup>.

والشيخ الامام محمد بن بكر لم يخص بعنايته ونظامه هذا بلدا معينا فقد كان رحمه الله يعنى بتكوين الطلاب من شتى الجهات، ثم يرسلهم الى مواطنهم لتأسيس حلقات العزابة ومشاركتهم فيها بأنفسهم.

ولا ينسى فضل جربة في هذا الموضوع فقد كان عالمها المجاهد العامل الشيخ فضيل بن أبي مور المتوفى سنة 440 تقريبا أول المتحمسين له، والملمحين على ابرازه الى الوجود، وذلك عندما بعث ابنه زكريا ويونس وابن أخته من جربة الى أبي عبد الله محمد بن بكر وهو في بلاد الجريد يوصيهم بملازمته وأن يلحوا عليه أن يسنّ نظاما يتأشى وحالة الكتان. «... فهذا سبب قعوده للحلقة المباركة الصادرة عن أكرم مشاركة بين الشجرتين الطيبتين المسورية والبكرية، بخطبة واجابة كانتا في الله»<sup>(2)</sup>.

وبفضل هذا الشيخ وجهوده في استدراج بقايا الواصلية في مزاب بالحجة واللين فردهم الى الاباضية الوهية وأدى وظيفة التدريس على أحسن وجه وبفضل المشائخ من رجال الاباضية الوافدين على مزاب من جربة وغيرها حافظ المذهب على كيانه بفضل نظام العزابة الى عصرنا هذا<sup>(3)</sup> فهذه أول علاقة حصلت بين جربة ومزاب.

## صور عن التعاون والعلاقات الأخوية بين جربة ومزاب

يستطيع المتتبع لمظاهر العلاقات الأخوية بين البلدين عبر هذه الفترة الطويلة من الزمن أن يصنفها ويجملها في ثلاثة محاور : بعثات الطلبة من جربة والى جربة، انتقال العلماء ضمنها الى مزاب والعكس، تبادل الزيارات والوفود.

أولا : انتقال الطلبة وسعيهم وراء الاستفادة والأخذ عن أي عالم يظهر في جربة أو مزاب، أما رغبة في الاستزادة واحاطة بقدر ممكن من المعرفة وأما لأن أوطانهم لا يتوفر فيها من العلماء ومن يتفرغ للتعليم مثل ما يتوفر في الوطن المنتقل إليه، وغالبا ما يكون ذلك بعد أن يؤم الطالب محاضرات العلم في شمال افريقيا ويكرع منها، خاصة القيروان وتونس العاصمة. فيجد هذا الطالب من الامكانيات ما يعينه ويشجعه على قضاء فترة في الأخذ والاستزادة فمساجد مزاب تبني بجانبها بيوتات تكون مأوى للطلبة الوافدين من القطرين ولها من الأوقاف ما يعين أولئك الطلبة ويدفع عنهم العوز، وقل مثل ذلك في جربة ومساجدها كالمسجد الكبير في حرمة الحسان، ومسجد واد الزيب وغيرهما.

نذكر على سبيل المثال الشيخ الشهيد أبا سليمان داود بن ابراهيم التلاقي استشهد سنة 967 هـ فقد قصد الشيخ أبا مهدي عيسى بن اسماعيل المصعبي المليكي، نسبة الى مليكة قرية بمزاب وقد تتلمذ الشيخ أبو مهدي المصعبي على الشيخ أبي سعيد الجربي المعروف بالشيخ عمي سعيد.

والشيخ يحيى بن صالح الأفضلي من مزاب من بني يزقن أخذ العلم عن الشيخ أحمد بن يوسف بن محمد المصعبي الذي استقر بجربة.

وأخيرا تلاميذ الشيخ أطفيش رحمه الله في مزاب، من جربة، رمضان بن يحيى اللبني، والشيخ سعيد بن علي بن تعاريت، والشيخ رمضان بن مرزوق والشيخ أحمد بن الحاج يوسف بن سعيد.

(1) الاباضية في موكب التاريخ 255.

(2) طبقات الدرجيني ص 132، ج 1.

(3) نظام العزابة في جربة، ص 40.

الواحد بين المجتمعين من التفاهم، والتعاون، ونوعية السلوك ما يفتح السبيل لذلك، ويسر الجوار والمصاهرة والمواطنة وغير ذلك من مظاهر النشاط الاجتماعي.

وأجدني وقد أشرت الى هذا السبب الأول الذي أراه هو محور هذه العلاقة — قلت أجدني مضطرا أن أئين بإيجاز واختصار من هم هؤلاء الاباضية وما الذي يحدد مذهبهم ويميزه، ولا أظنكم — أيها السادة الاجلاء — ترون ذلك مني خروجًا عن الموضوع، فهذا الملتقى خصص لتاريخ جربة ثقافيا واجتماعيا ومذهبيا واقتصاديا عبر العصور، هذا من جانب، ومن جانب ثان أرى الكثير من العلماء والباحثين لهم نظرة مضببة غير واضحة عن المذهب الاباضي. والبعض لا يعرف عنه إلا ما ذكره المؤرخون وكتاب الفرق الاسلامية من أوصاف وأحكام أقل ما يقال فيها أنها ينقصها التحري وأمانة النقل، فمن الأنسب ونحن بصدد الحديث عن جربة أن نضبط نوعية المذهب الاسلامي الذي ينتمي اليه كثير من سكانها.

تنسب الاباضية الى عبد الله بن اباض التميمي أحد أئمة هذا المذهب والمناقضين عنه، عاش في النصف الثاني من القرن الأول الهجري، وإمام المذهب الذي استقرت على يده نظرياته ومبادئه هو التابعي المحدث أبو الشعثاء جابر بن زيد الأزدي العماني البصري المتوفى سنة 96 هجري، ومن بعده تلميذه أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة مولى في بني تميم المتوفى في مطلع النصف الثاني من القرن الثاني — رحمهم الله —.

وأهم المبادئ التي تدور حولها توجهات ونظريات المذهب الاباضي ما يلي :

1 — الاعتقاد على الكتاب والسنة والاجماع والاجتهاد والقياس، وهو ما اتفق عليه أئمة المذاهب الاسلامية المعتمدة.  
2 — الخلافة الاسلامية تكون بالشورى واتفاق صلحاء المسلمين ولا يدخل فيها اعتبار النسب أو القرشية أو غيرها، والمدار على الكفاءة والنزاهة وإن انحرف خليفة المسلمين وعجز عن القيام بمهمة الخلافة، فلا مناص من عزله والخروج عن طاعته، وهذا هو المنطلق الأول للمذهب الاباضي ولذا يحلو لكثير من المؤرخين أن يعدوهم من الخوارج، ولا يجمعهم بالخوارج إلا هذا المبدأ الهام.

3 — ان الاسلام قول واعتقاد، وعمل وسلوك، فالمسلم حقا هو الذي جمع بينهما. والذي أتى بالاعتقاد والقول وقصر عن العمل والتطبيق مذنب عاص ناقص الايمان وتبقى له مع ذلك حرمة الاسلام.

4 — الولاية والبراءة، أو مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومحمل القول في هذا المبدأ : على المسلم أن يتولى. ويجب ويتاصر من ظهر منه الوفاء بدين الله والعمل بالاسلام، فلا يقف موقفا سلبيا منه لا يهيم صلاحه ولا يؤيده على فعل الخير. والعكس كذلك عليه أن يتبرأ من العاصي المناق الذي يخل بالعمل بما يأمر به الاسلام، ولا يقف موقف المتفرج، فعليه أن ينهيه عن منكره وأن يحاول رده ما استطاع، وأن يكره فعله ويستكره ولو بقلبه، ولا يكون معذورا عند الله ان لم يفعل ذلك.

وما عدا هذه المحاور الاربعة، لا يعدو أن يكون مما هو من البحث النظري الفلسفي البحث كأسماء الله وصفاته هل هي ذاته أو شيء خارج عنه؟ والوعد والوعيد والخلود فيهما — ورؤية الباري في الآخرة، والعدل في حقه تعالى وغير ذلك مما ليست له علاقة كبيرة بالحياة العملية وسلوك الفرد.

نعود الى موضوعنا من الحديث عن الأسباب الداعية لتلك الروابط والعلاقة بين جربة ومزاب.  
— ذلك هو السبب الأول —

## ثانيا : الظروف الاجتماعية والبيئة.

ان بيئة مزاب وبيئة جربة قريبتان ان لم تكونا متشابهتين، جربة جزيرة منعزلة تكاد تكون فقيرة لولا شيء من الثروة السمكية والزراعة بجوار أهلها هنا وهناك إخوان لهم مسلمون ولكنهم يضايقونهم بتصرفاتهم التي لا تتسم في كثير منها بالعدل والأخذ بالحق. فتركت رسوبات في أنفسهم جعلتهم يتسمون بالخذر، ويتشبثون بالمذهب الذي اختاروه، والمزايون لهم نفس الظروف، بلدهم جزيرة في وسط الرمال، أرض غير ذات زرع، يجدون ممن يجاورهم نفس ما يجده أهل جربة من رسوبات تلك الحقب المظلمة التي أضعفت المسلمين وجعلت بأسهم بينهم شديدا.

وكل عامل من العاملين كفيلا أن يفتح بين المجموعتين آفاقا واسعة من التعاون والروابط الاجتماعية ما يبقى أمدا بعيدا فيشمل أجيالا تلو الأجيال.

يذكر المرحوم الشيخ أبو اليقظان في بعض تقييداته عن تاريخ الإباضية في جربة ومزاب وجبال نفوسة، موردا رسالة بعثها الشيخ باسة بن موسى المتوفى 1176 م يقول عنها: «لقد عثرنا على رسالة وجهها إلى اخوان له من بني مصعب «مزاب» وهم بجربة يزاولون دروسهم مما ورد فيها: اخواننا الله الله في زيادة العلم ليلا نهارا مساء وصباحا، لأن الجهل مطية من ركبها ذل ومن صحبها ضل. ثم يورد أسماء الطلبة يخصهم بالتحية واحدا واحدا<sup>(1)</sup>».

ثانيا: انتقال عالم من منطقة إلى أخرى قياما بواجب التعليم ونشر الفضيلة والتفقه في الدين، كان علماء الإباضية حريصين على نشر العلم والمعرفة والمحافظة على مستوى رفيع من العلوم الدينية في مجتمعاتهم ولا أشد خطرا لديهم على المجتمع الاسلامي من الجهل بالدين «وليس منا من قال: ان علم الديانة يدرك بغير التعلم<sup>(2)</sup>».

ومن هؤلاء العلماء الذين وفدوا الى مزاب تحقيقا لهذا الغرض صاحب الفضل على مزاب في كثير من الأنظمة والنشاط الاجتماعي والثقافي، الشيخ سعيد بن علي بن حميد الخيزري الجربي من علماء النصف الأول من القرن العاشر الهجري جاء الى مزاب نجدة له من ورطة الجهل والتخلف ويقال أنه ورد رئيس بعثة من العلماء من جربة ونفوسة طلبا المزابيون من اخوانهم انقاذا للموقف المتردي في مزاب فكان منها:

الشيخ عمي سعيد بن علي الجربي استقر في غرداية وتعرف العشيرة المنتمة إليه بعشيرة آل عمي سعيد. والشيخ بالحاج بن محمد بن سعيد من نفوسة استقر في بني يزقن وعشيرته تعرف بآل ازيار. والشيخ دحمان النفوسي استقر في بنورة، وقد أتت هذه البعثة ثمارها خاصة ما قام به كل من الشيخ عمي سعيد والشيخ بالحاج محمد.

ومن هؤلاء صاحب الفضل الكبير كذلك على جربة الشيخ يوسف بن محمد المصعبي وابنه من بعده محمد بن يوسف توفى الأب سنة 1188 هـ، لهذا العالم الجليل آثار قيمة ومواقف محمودة ونشاط اجتماعي ثقافي، أحيا بذلك الحركة العلمية في جربة، وكان مقر نشاطه بالجامع جامع الشيخ أبي مسور بأجيم.

ثالثا: تبادل الوفود والزيارات بين مزاب وجربة، فلا تمر فترة إلا ويזור عالم أو عالمان مع من يصحبهما من الطلبة ومحبي العلم منطقة من تلك البلدان فتترك زيارته حيوية ونشاطا لما يقع في تلك الزيارات من تجمع ولما يلقى فيها من دروس ووعظ ولما يقع فيها من بحث علمي والمراجعة والاستشارة في فتوى معينة أو نازلة حديثة.

أذكر على سبيل المثال زيارة الشيخ أطفيش لجربة بمناسبة سفره الى الحج سنة 1303 هـ، والشيخ بيوض الحاج ابراهيم مرتين أو ثلاث والشيخ محمد التميني وغير هؤلاء.

واني أورد كلمة عن الشيخ أبي اليقظان من مؤلف له مخطوط نقل منه الشيخ علي يحي معمر صاحب كتاب الإباضية في موكب التاريخ. يقول رحمه الله: «يمكن أن نلخص بعض المظاهر التي تدل على هذا الترابط في النقاط التالية:

- (1) انتقال بعض الأسر من جهة إلى أخرى وتفرعها وقيادتها لحركة التعليم والاصلاح كما وقع من أسرة عبد الله الفرسطائي في مناطق الإباضية بالجزائر، وكما وقع من الأسر البارونية في جربة، وكما وقع من أسرة آل ورو من مليكة في جربة.
- (2) نجدة نفوسة لجربة في محتها بغزو الاسبان سنة 915 هـ.
- (3) خدمة الشيخ أطفيش من مزاب رحمه الله لمؤلفات نفوسة وجربة والاستفادة منها واشتغال حلقة الدراسية على أعداد من أبناء جربة ونفوسة تخرج منهم أعلام أمثال سليمان باشا الباروني وعمر العوام.
- (4) تعاون رجال الأقطار الثلاثة في تبادل الثقافة واستنساخ المخطوطات والتعاون على نشر الكتب العلمية والدينية<sup>(1)</sup>».

هذا ولا يخفى على السادة المحترمين ما لهذه الحركة التعاونية من أثر كبير ولو كانت علمية ثقافية بالدراجة الأولى — على الناحية الاجتماعية والفكرية من نقل العادات والاعتباس من التقاليد وغيرها من مظاهر النشاط في الحياة فلدنا في مزاب أسر تنتمي إلى جربة وأصلها الأول جاء منها كأسرة آل الفخار في غرداية وقد جلبوا معهم صناعة الفخار وانتشرت في مزاب، وأسرة آل ميثار وآل ازيار في بني يزقن وآل الحاج عيسى في العطف. وفي مظاهر الزينة والملابس التقليدية في الأفراح صور

(1) انظر الرسالة في كتاب الإباضية في موكب التاريخ — الجزائر — ص 250.

(2) عقيدة العزابة لعمر بن جميع.

(1) الإباضية في موكب التاريخ — الجزائر — ص 260.

مقتبسة من جربة كأنواع من الحلبي الذهبية معروفة «شاركة» وطرز من الألبسة الصوفية نقول لها باللسان المحلي «تجريت» أي الجريبة تلبس في مناسبات معينة، وغير ذلك كثير.

وبعد فاني أرجو أن أكون قد أفدت السادة المحترمين بهذه اللمحة وأبرزت الخطوط الهامة من العلاقات التي سادت المنطقتين خلال عشرة قرون. يبدو منها أن الفترة الأخيرة من تلك القرون أخذت بالنصيب الأوفر من هذه العلاقات، وهي القرون الأربعة الأخيرة، وذلك يعود الى أسباب لا يتسع المقام لذكرها، وآلا فالعلاقة بين القطرين لم تنقطع عبر هذه الحقب الطويلة.

ولا يسعني إلا أن أسجل هذه الظاهرة الهامة بين مجتمعين صغيرين من المجتمعات الاسلامية، تحلى فيهما سمات التفاني والتضحية والمساعدة.

لأجل خدمة الاسلام ونشر الفضيلة والدعوة الى المثل الانسانية والعمل لها من الخير والمحبة ونشر الاسلام، ومحاربة الجهل والفساد، مجتمعان صغيران متباعدان أبت فيهما همم الرجال وفعالية المثل العليا إلا أن يصمدوا ويتآزروا رغم الضعف وقلة الامكانيات وليت المجتمعات الاسلامية أخذت منهما العبرة فلم تستسلم للغزو والضياع.

وآخر كلمة أقولها: تحية حارة وشكر خالص للجامعة التونسية، وكلية العلوم الانسانية فيها، التي كانت السبب في هذا اللقاء، والداعية اليه، وقد بذلت وضحت، وفتح رجالها صدورهم لهذه الأفكار التي لا شك أنها ستساهم في وحدة الأمة الاسلامية، وبعث عظمة تاريخها، وإنارة السبيل أمام مستقبلها.

وفقنا الله لما فيه خير الاسلام وخير الانسانية عامة.

مزاب 21 جمادى الأولى 1402 هـ  
15 مارس 1982 م

## مراجع البحث

- |                         |                                               |
|-------------------------|-----------------------------------------------|
| علي يحي معمر            | الإباضية في موكب التاريخ (الحلقة 4)           |
| صالح باجبة              | الإباضية بالجزيرة                             |
| الشيخ سالم بن يعقوب     | رسالة تاريخ بعض مشائخ جربة (مخطوط)            |
| الشيخ سالم بن يعقوب     | رحلة الشيخ أطفيش الى جربة (مخطوط)             |
| الشيخ سالم بن يعقوب     | تلامذة الشيخ أطفيش من جربة (مخطوط)            |
| أحمد بن سعيد الدرجيني   | طبقات المشائخ بالمغرب ج 2                     |
|                         | مجموع رسائل الشيخ الحاج ابراهيم بحمان (مخطوط) |
|                         | مجموع وثائق مجلس عمي سعيد (مخطوط)             |
| فرحات الجعيري           | نظام العزابة عند الإباضية الوهبية بجربة       |
| أبي العباس أحمد الشماخي | كتاب السير (مطبوع)                            |

## صلة جربة بواد مزاب

الشيخ سليمان داود بن يوسف

باسم الله الرحمن الرحيم

أيها الجمع المبارك..

السلام عليكم ورحمته وبركاته.

ان الحديث عن جزيرة جربة ومكانها حديث شيق وممتع وواسع جدا، لا يسعه الوقت ويحتاج الى مجلدات وإلى بحث عميق ودراية واسعة. ولهذا رأيت أنه يجب الاختصار على موضوع واحد فاستعرضت في ذهني مواضيع متعددة لاختار منها موضوعا واحدا ووقع اختياري على صلة جزيرة جربة بوادي مزاب.

وهو موضوع مهم جدا، ولكن كفايتي مؤنة ذلك زميلي الأستاذ العضو بالمجلس الاسلامي الأعلى بالجزائر الأخ ابراهيم طلاي بارك الله فيه. ومع ذلك حاولت أن أشارك بشيء ضئيل وهي القصيدة التي نظمها العالم الجليل الشيخ يحيى بن موسى عندما هاجم الاسبان جزيرة جربة سنة 917 هـ. فاستنفر سكان واد مزاب للجهاد في سبيل الله فقدم ومعه جمع من المجاهدين اشتبكوا في ثلاث معارك عنيفة كان النصر فيها للمسلمين وقد غنموا ثلاثة عشر باخرة مملوءة بالغنائم والذخائر وافتكوا سبعمائة ما بين امرأة و بنت أخذتها اسبانيا لبيعها اماء في أوروبا. وقد هاجمت اسبانيا في ذلك الوقت جميع المدن الساحلية للجزائر وتونس.

وقد اشتبك السيد خير الدين بربروس في معركة عنيفة مع اسبانيا في المرسى الكبير بناحية وهران. ولما انتصر المسلمون في جربة جاء السيد خير الدين بربروس إلى جربة يهنئهم على النصر وقال لهم انني أجعل جزيرة جربة مركزا للغنائم التي أحصل عليها في البحر كما ذكر ذلك كثير من المؤرخين وانني اصطحبت معي وثيقة مهمة ألفت في مؤتمر المستشرقين الذي وقع بالعاصمة الجزائرية سنة 1905، وفيها بيان مهم عن مشاركة مشائخ جبل نفوسة الاباضية في محاربة اسبانيا والدفاع عن جربة بتفاصيل مهمة.

وهناك ناحية مهمة جدا في تاريخ جربة وهي ناحية العلم والعلماء فقد كانت زاخرة بالعلماء الاجلاء ومؤلفاتهم في الشريعة الاسلامية عظيمة جدا، فيها ما هو موجود ويحتاج الى النشر وفيها ما اندثر بحجرة. والحديث عن العلماء ومؤلفاتهم يحتاج إلى تنقيب وبحث اعترف بعجزتي عن إيفائه حقه ولا بأس أن تأتي ببذرة من علاقة علماء جربة بواد مزاب ولهذا رأيت أن أتطرق في هذه المناسبة إلى موضوع هام جدا أغفله الكثير وربما يجهلونه وأرجو منكم الانتباه فهو موضوع مهم جدا : وهو :

جهاد جربة في الحروب الصليبية وانتصار صلاح الدين في القدس على أيديهم. وقبل أن أنطرق إلى صلب الموضوع أشيد بعلاقة الدولة الموحدية بجربة وأنتم تعلمون أن الدولة الموحدية أكبر دولة إسلامية في القرن السادس، فقد استولت على الأندلس والمغرب والجزائر وتونس وليبيا إلى حدود مصر. وصلة الموحدين بجربة عظيمة من ناحيتين حيث أنها بربرية زناتية كأهل جربة وأنها إباضية المذهب كأهل جربة ولهذا كانت الصلة بينهما قوية وقد قاموا بنصر الإسلام ولهم مواقف مشرفة في الحروب الصليبية.

وذلك أن الأفرنج قد ملكوا سواحل الشام منذ تسعين سنة وملكوا معها بيت المقدس شرفه الله. فلما استولى السلطان صلاح الدين رحمه الله على ديار مصر والشام واعتزم على جهادهم وصار يفتح حصونهم واحدا بعد واحد حتى أتى على جميعها وافتتح بيت المقدس سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة وهدم الكنيسة التي بناها وانبضت أمم النصرانية من كل جهة وتابعت أساطيلهم بالمد من كل ناحية تلك الثغور القريبة من بيت المقدس واعترضوا أسطول صلاح الدين في البحر ولم تقاومهم لضعفها يومئذ فبعث صلاح الدين بصريحه إلى أبي يعقوب المنصور الموحدي سنة ست وثمانين وخمسمائة يطلب اعانته بالأساطيل وأوفد عليه أبا الحارث عبد الرحمن بن منفذ من بيت ملوك بعض حصون الشام وكان صلاح الدين قد ملكها من أيديهم وأبقى عليهم في دولته فبعث صلاح الدين عبد الرحمن هذا إلى أبي يعقوب المنصور طالبا مدد الأساطيل لتحول في البحر وتحول أساطيله دون امداد النصرانية بالشام وبعث معه إلى المنصور بهدية تشتمل على مصحفين كريمين ومائة درهم من ذهب البلسان وعشرين رطلا من العود وستائة مثقال من المسك والعنبر وخمسين قوسا عربية بأوتارها وعشرين من النصول الهندية وسروج عدة، فوصل إلى المغرب وأدى الرسالة وقدم الهدية.

وكان عنوان الكتاب الذي بعث به صلاح الدين :

— من صلاح الدين إلى أمير المسلمين وفي أوله الفقير إلى الله تعالى يوسف بن أيوب. وبعد : الحمد لله الذي استعمل على الملة الخنيفية من استعمر الأرض وأغنى من أهلها من سألها القرض وأجرى من أجرى على يديه النافلة والقرض وزين سماء الله بدراري الذراري التي بعضها من بعض. وهو كتاب طويل. ولما وقف عليه المنصور جهز له مائة وثمانين أسطولا ومنع النصاري من سواحل الشام وكان ابن منفذ رسول صلاح الدين تقدم للمنصور بقصيدة فيها أربعون بيتا نورد بعضها منها :

|                                |                                |
|--------------------------------|--------------------------------|
| سأشكر بحرا ذا عباب قطعتـه      | إلى بحر جود ما لآخراه ساحـل    |
| إلى معدن التقوى إلى كعبة الندى | إلى من سمت بالذكر منه الأوائـل |
| إلى أمير المؤمنين لم تزل       | إلى بابك المأمول ترجى الرواحـل |
| قطعت إليك البر والبحر موقفا    | بأن نذاك الغمر بالنجـح كافـل   |
| فلا زلت للعلياء والجود بانيـا  | تبليغك الآمال ما أنت آمـل      |

بدأت عناية الموحدين بانشاء الأساطيل في عهد عبد المؤمن حتى بلغ عددها أربعمائة قطعة وزعها على مواني مملكته بالأندلس والمغرب والجزائر وتونس وكان أهم الموانئ سبتة وقادس والمهدية وباديس ووهران وطنجة وعنابة.

## قيادة الأساطيل البحرية في عهد الموحدين بيد أبناء جربة

يقول ابن خلدون في مقدمته بأن أساطيل المسلمين انتهت في عهد أبي يعقوب ما لم تبلغه من قبل ولا من بعد من حيث الكسوة وجودة الصناعة.

وكانت قيادة أساطيل الموحدين ضد الحروب الصليبية تحت أمير البحر أحمد الصقلي من أباضية جربة من صدغيان. وكان من أمراء البحر في عهد الموحدين كذلك محمد بن يعقوب من صدغيان من جربة كذلك، وبهما انتصر صلاح الدين الأيوبي كما تقدم وكانت أساطيل الموحدين موزعة كما ذكره ابن خلدون<sup>(1)</sup> في طرابلس وقابس وجربة وتونس وبونة وبجاية الخ...

ويقول ابن خلدون لما استفحلت دولة الموحدين في المائة السادسة وملكوا العرويتين أقاموا خطة هذا الأسطول على أمم ما عرف وأعظم ما عهد وكان قائد أسطولهم أحمد الصقلي أصله من صدغيان من سدويكش من جزيرة جربة أسره النصاري من سواحلها وربى عندهم واستخلصه صاحب صقلية واستكفاه ثم هلك وولي ابنه فاسخطة ببعض النزعات وخشي على نفسه ولحق بتونس ونزل عند شيخ بها من بني عبد المؤمن وأجاز إلى مراکش فتلقيه الخليفة يوسف بن عبد المؤمن بالميرة والكرامة وأجزل الصلة وقال له عندي اطلاع واسع على ما في البحر ولا يمكن أن يصطاد أحد سمكة صغيرة بدون أن أطلع عليه لأنه كان يعمل في البحرية بصقلية فقلده أمر أساطيله فجلى في جهاد أمم النصرانية وكانت له آثار وأخبار ومقامات مذكورة في دولة الموحدين وانتهت أساطيل المسلمين على عهده في الكثرة والاستجادة إلى ما لم تبلغه من قبل ولا من بعد فيما عهدناه.

ولما قام صلاح الدين يوسف بن أيوب ملك مصر والشام لعهد باسترجاع ثغور الشام من أيدي الأمم النصرانية وتطهير بيت المقدس تابعت أساطيلهم بالمد لتلك الثغور من كل ناحية قريبة لبيت المقدس الذي كانوا قد استولوا عليه فأمدوهم بالعدد والأقوات. وقد ضعف المسلمون عن مقاومتهم منذ زمن طويل<sup>(2)</sup>. ولما جاءت نجدة أبي يعقوب المنصور الموحدي تحت قيادة أحمد الصقلي وابن يعقوب وكلاهما من صدغيان من جربة. وصدوا جميع قوى الصليبيين القادمة من أوروبا عن ثغور الشام وقضوا على كل محاولة منهم.

جاء امبراطور انكليتره قلب الأسد (كوردو ليون) وقد جاء ليسجد للصليب الذي كان معلقا في صومعة بيت المقدس نحو تسعين عاما فلما رأى تلك القوة وهجوم صلاح الدين على بيت المقدس حاول الفرار فلم يتمكن من ذلك للقوة الراسية في البحر فرضخ لصلاح الدين بدون مقاومة.

## علاقة علماء جربة بواد مزاب في نشر علوم الشريعة الإسلامية

هذا موضوع واسع جدا اقتصر فيه على نبذة وجيزة كعنوان أفتح به الباب لمن أراد أن يتوسع في البحث عنه. فمن علماء مزاب الذين تلقوا العلم في جربة قال الشيخ أبو اليقظان رحمه الله في كتابه ملحق السير، ومنهم العلامة الشيخ يوسف بن محمد المصعبي المليكي من آل ويرو في مليكة. أخذ العلم عن الشيخ سعيد بن يحيى الجادوي كما أخذ عن الشيخ سليمان بن محمد الباروني وعن الشيخ عمر الويراني الشدويكشي. وإليه أسند نسب الدين عند أهل وادي ميزاب المتأخرين. وكفى به شرفا أن تخرج على يديه تلميذه الشيخ أبو زكرياء يحيى بن صالح الذي أحيا وادي ميزاب كما يأتي قريبا إن شاء الله.

وله تأليف كثيرة جزيلة النفع، عظيمة الفائدة منها : حاشية ضخمة في جزئين على تفسير الجلالين. ومنها : حاشية على كتاب الفرائض للشيخ اسماعيل الجيطالي. ومنها : رسالة محكمة في الرد على من حكم برد شهادة الإباضية من المنتطعين. أبرز فيها تفوقه العلمي وغزارة مادته ومنها : رسالة في تنجيس أبوالحيوانات، رد فيها على من زعم طهارتها. ومنها : مجموعة أجوبة مفيدة عن أسئلة لو جمعت كلها لكانت كتابا ضخما ومنها : غير ذلك. وكان يعظ الأمراء والحكام ولا تأخذه في الله لومة لائم، وله في نفوسهم مكانة رفيعة ومنزلة سامية يتحامون جانبه إجلالا لعلمه وقدره وفضله وكانوا يزورونه في مواسم الأعياد.

وكان يتعلم عنده كثير من تلامذة اخواننا المالكية وتوفي رحمه الله في صفر ضحوة الأحد عام 1187 هـ. ولما توفي قال عنه أحد علماء المالكية بجربة : لا يفرح لموت عالم.

وكان بينه وبين أبي ستة المحشي قرن كامل إذ توفي أبو ستة سنة 1087 هـ والشيخ يوسف سنة 1187 هـ وهما مجددان لمعالم الاسلام رحمهما الله. ولترجمته بسطة حافلة تركناها خوف التطويل.

وقد أضاف الشيخ أبو اليقظان حفظه الله ورعاؤه إلى ترجمة العلامة أبي يعقوب ترجمة ولده العلامة أبي عبد الله محمد فقال :

جهاد جربة في الحروب الصليبية وانتصار صلاح الدين في القدس على أيديهم. وقبل أن أتطرق إلى صلب الموضوع أشيد بعلاقة الدولة الموحدية بجزيرة وأنتم تعلمون أن الدولة الموحدية أكبر دولة إسلامية في القرن السادس، فقد استولت على الأندلس والمغرب والجزائر وتونس وليبيا إلى حدود مصر. وصلة الموحدين بجزيرة عظيمة من الناحيتين حيث أنها بربرية زناتية كأهل جربة وإنها إباضية المذهب كأهل جربة ولهذا كانت الصلة بينهما قوية وقد قاموا بنصر الإسلام ولهم مواقف مشرفة في الحروب الصليبية.

وذلك أن الأفرنج قد ملكوا سواحل الشام منذ تسعين سنة وملكوا معها بيت المقدس شرفه الله. فلما استولى السلطان صلاح الدين رحمه الله على ديار مصر والشام واعتزم على جهادهم وصار يفتتح حصونهم واحدا بعد واحد حتى أتى على جميعها وافتتح بيت المقدس سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة وهدم الكنيسة التي بناهيه وانقضت أمم النصرانية من كل جهة وتابعت أساطيلهم بالمد من كل ناحية تلك الثغور القريبة من بيت المقدس واعترضوا أسطول صلاح الدين في البحر ولم تقاومهم لضعفها يومئذ فبعث صلاح الدين بصريحه إلى أبي يعقوب المنصور الموحدي سنة ست وثمانين وخمسمائة يطلب اعانته بالأساطيل وأوفد عليه أبا الحارث عبد الرحمن بن منفذ من بيت ملوك بعض حصون الشام وكان صلاح الدين قد ملكها من أيديهم وأبقى عليهم في دولته فبعث صلاح الدين عبد الرحمن هذا إلى أبي يعقوب المنصور طالبا مدد الأساطيل لتحول في البحر وتحول أساطيله دون امداد النصرانية بالشام وبعث معه إلى المنصور بهدية تشتمل على مصحفين كريمين ومائة درهم من ذهب البلسان وعشرين رطلا من العود وستائة مثقال من المسك والعنبر وخمسين قوسا عربية بأوتارها وعشرين من النصول الهندية وسروج عدة، فوصل إلى المغرب وأدى الرسالة وقدم الهدية.

وكان عنوان الكتاب الذي بعث به صلاح الدين :

— من صلاح الدين إلى أمير المسلمين وفي أوله الفقير إلى الله تعالى يوسف بن أيوب. وبعد : الحمد لله الذي استعمل على الملة الخفيفة من استعمر الأرض وأغنى من أهلها من سألته القرض وأجرى من أجرى على يديه النافلة والفرض وزين سماء الله بداري الذراري التي بعضها من بعض. وهو كتاب طويل. ولما وقف عليه المنصور جهز له مائة وثمانين أسطولا ومنع النصارى من سواحل الشام وكان ابن منفذ رسول صلاح الدين تقدم للمنصور بقصيدة فيها أربعون بيتا نورد بعضها منها :

|                                |                               |
|--------------------------------|-------------------------------|
| سأشكر بحرا ذا عباب قطعته       | إلى بحر جود ما لآخراه ساحل    |
| إلى معدن التقوى إلى كعبة الندى | إلى من سمى بالذكر منه الأرائل |
| إلى أمير المؤمنين لم تزل       | إلى بابك المأمول ترجى الرواحل |
| قطعت إليك البر والبحر موقفا    | بأن نذاك الغمر بالنجح كافل    |
| فلا زلت للعلواء والجود بانيها  | تبليغك الآمال ما أنت أمـل     |

بدأت عناية الموحدين بإنشاء الأساطيل في عهد عبد المؤمن حتى بلغ عددها أربعمائة قطعة وزعها على مواني مملكته بالأندلس والمغرب والجزائر وتونس وكان أهم الموانئ سبتة وقادس والمهدية وباديس ووهران وطنجة وعنابة.

## قيادة الأساطيل البحرية في عهد الموحدين بيد أبناء جربة

يقول ابن خلدون في مقدمته بأن أساطيل المسلمين انتهت في عهد أبي يعقوب ما لم تبلغه من قبل ولا من بعد من حيث الكسوة وجودة الصناعة.

وكانت قيادة أساطيل الموحدين ضد الحروب الصليبية تحت أمير البحر أحمد الصقلي من إباضية جربة من صدغيان. وكان من أمراء البحر في عهد الموحدين كذلك محمد بن يعطوش من صدغيان من جربة كذلك، وبهما انتصر صلاح الدين الأيوبي كما تقدم وكانت أساطيل الموحدين موزعة كما ذكره ابن خلدون<sup>(1)</sup> في طرابلس وقابس وجربة وتونس وبونة وبجاية الخ....

(1) المقدمة ص 452.

ويقول ابن خلدون لما استفحلت دولة الموحدين في المائة السادسة وملكوا العرويتين أقاموا خطة هذا الأسطول على أتم ما عرف وأعظم ما عهد وكان قائد أسطولهم أحمد الصقلي أصله من صدغيان من سدويكش من جزيرة جربة أسره النصارى من سواحلها وربى عندهم واستخلصه صاحب صقلية واستكفاه ثم هلك وولي ابنه فاسخطه ببعض النزعات وخشي على نفسه ولحق بتونس ونزل عند شيخ بها من بني عبد المؤمن وأجاز إلى مراكش فتلقيه الخليفة يوسف بن عبد المؤمن بالمبرة والكرامة وأجزل الصلة وقال له عندي اطلاع واسع على ما في البحر ولا يمكن أن يصطاد أحد سمكة صغيرة بدون أن أطلع عليه لأنه كان يعمل في البحرية بصقلية فقلده أمر أساطيله فجلى في جهاد أمم النصرانية وكانت له آثار وأخبار ومقامات مذكورة في دولة الموحدين وانتهت أساطيل المسلمين على عهده في الكثرة والاستجادة إلى ما لم تبلغه من قبل ولا من بعد فيما عهدناه.

ولما قام صلاح الدين يوسف بن أيوب ملك مصر والشام لعهدده باسترجاع ثغور الشام من أيدي الأمم النصرانية وتطهير بيت المقدس تابعت أساطيلهم بالمد لتلك الثغور من كل ناحية قريبة لبيت المقدس الذي كانوا قد استولوا عليه فأمدوهم بالعدد والأقوات. وقد ضعف المسلمون عن مقاومتهم منذ زمن طويل<sup>(2)</sup>. ولما جاءت نجدة أبي يعقوب المنصور الموحدي تحت قيادة أحمد الصقلي وابن يعطوش وكلاهما من صدغيان من جربة. وصدوا جميع قوى الصليبيين القادمة من أوروبا عن ثغور الشام وقضوا على كل محاولة منهم.

جاء امبراطور انكلترة قلب الأسد (كوردو ليون) وقد جاء ليسجد للصليب الذي كان معلقا في صومعة بيت المقدس نحو تسعين عاما فلما رأى تلك القوة وهجوم صلاح الدين على بيت المقدس حاول الفرار فلم يتمكن من ذلك للقوة الراسية في البحر فرضخ لصلاح الدين بدون مقاومة.

## علاقة علماء جربة بواد مزاب في نشر علوم الشريعة الإسلامية

هذا موضوع واسع جدا اقتصر فيه على نبذة وجيزة كعتوان أفتح به الباب لمن أراد أن يتوسع في البحث عنه. فمن علماء مزاب الذين تلقوا العلم في جربة قال الشيخ أبو اليقظان رحمه الله في كتابه ملحق السير، ومنهم العلامة الشيخ يوسف بن محمد المصعبي المليكي من آل ويرو في مليكة. أخذ العلم عن الشيخ سعيد بن يحيى الجادوي كما أخذ عن الشيخ سليمان بن محمد الباروني وعن الشيخ عمر الويراني الشدويكشي. وإليه أسند نسب الدين عند أهل وادي ميزاب المتأخرين. وكفى به شرفا أن تخرج على يديه تلميذه الشيخ أبو زكرياء يحيى بن صالح الذي أحيا وادي ميزاب كما يأتي قريبا إن شاء الله.

وله تآليف كثيرة جزيلة النفع، عظيمة الفائدة منها : حاشية ضخمة في جزئين على تفسير الجلالين. ومنها : حاشية على كتاب الفرائض للشيخ اسماعيل الجيطالي. ومنها : رسالة محكمة في الرد على من حكم برد شهادة الإباضية من المنتطعين. أبرز فيها تفوقه العلمي وغزارة مادته ومنها : رسالة في تنجيس أبوالحيوانات، رد فيها على من زعم طهارتها. ومنها : مجموعة أجوبة مفيدة عن أسئلة لو جمعت كلها لكانت كتابا ضخما ومنها : غير ذلك. وكان يعظ الأمراء والحكام ولا تأخذه في الله لومة لائم، وله في نفوسهم مكانة رفيعة ومنزلة سامية يتحامون جانبه إجلالا لعلمه وقدره وفضله وكانوا يزورونه في مواسم الأعياد.

وكان يتعلم عنده كثير من تلامذة اخواننا المالكية وتوفي رحمه الله في صفر ضحوة الأحد عام 1187 هـ. ولما توفي قال عنه أحد علماء المالكية بجزيرة : لا يفرح لموت عالم.

وكان بينه وبين أبي ستة المحشي قرن كامل إذ توفي أبو ستة سنة 1087 هـ والشيخ يوسف سنة 1187 هـ وهما مجددان لعالم الاسلام رحمهما الله. ولترجمته بسطة حافلة تركناها خوف التظويل.

وقد أضاف الشيخ أبو اليقظان حفظه الله ورعاه إلى ترجمة العلامة أبي يعقوب ترجمة ولده العلامة أبي عبد الله محمد فقال :

ومتهم العلامة الكبير الشيخ محمد بن يوسف المصعبي المليكي أخذ العلم عن أبيه يوسف بن محمد بحجة كما أخذ عن الشيخ أبي العباس أحمد بن عمر بن رمضان التلاقي. وله تأليف كثيرة تدل على غزارة علمه وطول باعه منها شرحه لقصيدة أبي نصر فتح بن نوح الشهيرة بين الطلبة بتحريض الطلبة وقد طبع طبعاً حجرى بمصر وله خط جميل وقد نسخ بيده كثيراً من الكتب. ولم نعلم تاريخ وفاته بالضبط. ويقال أنه لما وضع في قبره شم الناس منه رائحة طيبة كالمسك ودفن هو وأخوانه على ومهني بمقبرة والدهم وهي قرب مقبرة الشيخ إسماعيل الحيطالي بحجة رحمهم الله.

وكان معاصراً للشيخ شعبان بن أحمد الفنوخي الجربي وكانت بينه وبين الشيخ أحمد مراسلات في الفقه والتوحيد والاحكام وله غير ما ذكرنا من التأليف تركنا سرداً خوف الإطالة.

هذا ما كتبه الشيخ أبو اليقظان عن هذين الامامين العظمين وفيه كفاية لمن يبحث عن تاريخ العلم والعلماء. وأختم حديثي ببندة وجيزة عن العلامة أبي زكرياء يحيى بن صالح الذي تخرج عليه كثير من علماء وادي مزاب. كان له أثر كبير في نشر الحضارة الاسلامية. وقد اکترع من بحر علمه الواسع نابغة عصره الشيخ عبد العزيز الثميني الذي قال فيه الدكتور سعد الله مدير قسم التاريخ في جامعة الجزائر في كتابه تاريخ الجزائر الحديث «شهدت الجزائر تقدماً في علوم الفقه والشرعية على يد باش تارزي القسنطيني والشيخ عبد العزيز الثميني الميزاني». صاحب كتاب النيل وشفاء العليل وهو المرجع في الفقه الاباضي وله تأليف متعددة. منها ما هو مطبوع ومنها ما هو مخطوط. وقد قام بشرح كتاب النيل قطب الأئمة الذي شاع ذكره في العالم الاسلامي الشيخ الحاج محمد بن يوسف اطفيش في عشرين جزءاً كان بحق موسوعة اسلامية أتى فيها بجميع أقوال علماء الاسلام بحيث أي مسلم يقلد اماماً ويريد معرفة أقوال امامه يجدها مبسطة فيه. وأختم حديثي عن الشيخ داود بن يوسف وهو من بني عبد الواد الذي تخرج على الشيخ يحيى بن صالح ويسعدني أنه جدي ولا تزال كتبه عندي وإن كان عدد المتخرجين عليه كثيراً.

وكان لجزيرة الفضل الكبير في نشر العلوم الاسلامية في كامل المغرب العربي وبالأخص بواد مزاب رحمهم الله وأدخلهم فسيح جناته.

قال الشيخ العلامة يحيى بن موسى المصعبي رحمه الله في جربة لما استولى عليها النصاري سنة 917 :

سمعت خطاباً رمى به الفؤاد  
بأن الجزيرة حلت بها  
إذا ما تأملتم قلت هـ  
ومن دون تحت التراب يرى  
سرايلهم من حديد لهم  
ومنه ترى الترس مكتسباً  
وليس سوى المقتولين يرى  
فصلصلة الرعد بين السحاب  
وفي الأرض تقدح أقدامهم  
وعسكر أهل الردى يتهي  
يسير على الأرض سير الدباب  
يصير الحصا تحت أقدامهم  
تزلزلت الأرض لما انتهوا  
فكم غائب غاب عن أهلـه  
في غريبي ويلي كيف النجا  
وكم من معمر وكم كاهل  
وكم حامل اسقطت حملها  
إذا ما سمعت العذارى لهـ  
بدمع يسيل على رقـرق

سقيما من النار يا للجهاد  
جيوش النصاري كمثل الجراد  
إذا ليل بدا شأؤه بالسواد  
غبار عجاجة أهل العناد  
غفار من الهند شبه المداد  
فكيف المهند كيف الرصاد  
من أجسادهم مهتمة بالفساد  
ب يزيد عليها صهيل الجياد  
بنار كبرق لدى المزن ماد  
ثمانين ألفاً وبالأزداد  
على كل نجد وفي كل واد  
شراراً وأيضاً كمثل الزناد  
الى رملية دون سوق البلاد  
فصادفه الأمر فيها يناد  
وقد عين الأسر بعد الوساد  
وكم مقعد دهره في السداد  
بأهوال تلك الأمور الشداد  
من أنين بصوت يذيب الفؤاد  
من الخد حمر فكيف الرقاد

لهن حنين يقلب من لمن  
ويا للاله ويا للحبا  
فأين الكمي بجريته  
فلبيك لبيك داع الى  
إذا الأرض ترمي بهم كالقضا  
فصبر جميل سلاحهم  
فلما التقى الجحفلان إذا  
فألقى الهزيمة فيهم كما  
بجزهم خزة يا فتى  
فلله حمد على مذهبى  
ومتى سلام على أحمد

نصيرن يا للجهاد الجهاد  
أيما من يريد النجا في المعاد  
وأين المقدم من ذي الأياد  
سبيل الاله ونهج الرشاد  
ويعرجو الى الحرب نحو الجهاد  
ونصر من الله رب العباد  
من الله نصر ونيل المراد  
يفر الغزال من الصيد عاد  
كصرم النخيل في يوم الحصاد  
وقد خصه بجميع الأياد  
دوام الجديدين بالاطراد

# ملاح عن الحركة العلمية عند الاباضية بجربة من الفتح الاسلامي سنة 47 هـ الى أواخر القرن الثاني عشر هجري

فرحات الجمبيري

بسم الله الرحمن الرحيم

ان أنت تأملت في المصادر والمراجع — وأنت تفكر في اعداد حديث عن جزيرة جربة — تشدك أفكار شتى، وتجد أمامك مدة خاما ما تزال في حاجة الى نظر طويل وبحث دقيق. وبما أنه لا بد مما ليس منه بد فلنحاول في هذه العجالة أن نطوف في أنحاء هذه الجزيرة مقتفين اثر الشيخ سليمان بن أحمد الجيلاني (متوفى 1099 هـ) في وصفه الزيارة التي كان يؤديها علماء الجزيرة كل شهرين للمساجد ولقبور العلماء<sup>(1)</sup>، عسى أن نستنتق أصحاب القبور عما بثوه في صدور الرجال من علم عسى أن يكون لهم صدقة جارية بين يدي الله تعالى ونستلهم أحجار تلك المساجد عما شاهدته من حرص على رعاية علوم الاسلام.

يقول الشيخ الجيلاني :

«فأولهم أبو مسور رحمه الله دخل الجزيرة في القرن الرابع في الخمسين الأولى منه، وقبره مشهور بقرب مسجد الفاهمين<sup>(2)</sup>. ان هذا النص يدفعنا الى أن نقف عند هذه القرون الأولى لنقتحم بعد ذلك محور حديثنا ويتمثل في تتبع أبرز اثار هذه الحركة العلمية جيلا بعد جيل إلى أواخر القرن الثاني عشر هجري عسى أن نبرز مساهمة هذه الجزيرة في اثناء الفكر الاسلامي.

لمحة عن القرون الأولى : من 47 هـ الى 300 هـ..

تتفق المصادر على ان جربة فتحها الصحابي ربيعة بن ثابت الأنصاري سنة 47 هـ 667 م زمن معاوية ابن أبي سفيان.

ثم تبخل علينا هذه المصادر بالمعلومات عدا بعض الاشارات الخاطفة التي تدل على أن هذه الجزيرة صارت بسرعة مقعلا من معاقل الاباضية نذكر منها :

(1) مخطوطة في مكتبي الخاصة.

(2) نفس المخطوطة ص 1.

(1) إشارة الشماخي الى جربة عند تعدادها للمواطن التابعة لامامة عبد الوهاب بن رستم (171 هـ - 211 هـ) حيث يقول، وغيرها تحت ولايته وكذا جربة<sup>(3)</sup>.  
(2) سعي والي جبل نفوسة من قبل الرستميين<sup>(4)</sup> أبي منصور إلى استبقاء جربة تحت نفوذه عندما انشق عليه ولد خلف بن السمح وانجاز في جربة<sup>(5)</sup>.  
إلا أن هذه الاشارات تفيد كثيرا بالنسبة الى تقييم الحركة العلمية التي ستنضبط بعض معالمها لذلك رأينا من الاحسن أن نشير بإيجاز الى الحركة العلمية التي أخذ منها أهل جربة ونسجوا على منوالها.  
ان نسبة الدين<sup>(6)</sup> في جزيرة جربة - ثبت أن أبا مسور أخذ عن أبي معروف عن محمد بن يانس عن أبي خليل عن حملة العلم عن أبي عبيدة عن جابر بن زيد عن جمع من الصحابة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.  
فواضح إذن أن أبا مسور كان على اطلاع على أن المذهب الاباضي بدأ كغيره من المذاهب الاسلامية على هيئة حركة علمية تأسست في البصرة على يد الامام التابعي جابر بن زيد (متوفى سنة 93 هـ) ثم تأصلت على يد تلميذه أبي عبيدة (متوفى 145 هـ) وعلى أيامه اتسعت هذه الحركة العلمية في صورة دقيقة التنظيم على هيئة مجالس علمية يفد إليها الرواد من أطراف العالم الاسلامي، وفعلًا فقد أخذ هذه الصورة الناصعة حملة العلم الخمسة<sup>(7)</sup> وعملوا على استجلاب أكثر عدد ممكن من الكتب تخص بالذكر منهم الامام عبد الرحمان بن رستم الذي أسس الدولة الرستمية وقد حافظت هذه الجزيرة على بعض منها بعد أن أبادتها الحروب في مواطن أخرى من مواطن الاباضية - نذكر منها :

- 1 - رسائل الامام جابر بن زيد<sup>(8)</sup>.
  - 4 - مدونة أبي غانم الخراساني التي رواها عنه الامام عبد الوهاب في تاهرت<sup>(9)</sup>.
  - 2 - كتاب النكاح للامام جابر بن يزيد.
  - 3 - كتاب الصلاة للامام جابر بن زيد.
- كما أن الشيخ أبا مسور عرف عن كتب ازدهار حلقات العلم بجبل نفوسة قبل واقعة مانو 283 هـ التي مات فيها أربعمائة عالم<sup>(10)</sup> ولا شك أنه حمل معه ما جمعه من كتب مفيدة عند اقامته للتعليم بالجبل.  
ان كل هذا الزاد الذي تجمع لأبي مسور سيكون نواة للحركة العلمية التي ستعطي أكلها في الجزيرة بعد حين.

#### فكيف كان نشاط أبي مسور في جربة؟ وما هي نتائجه؟

وحالما اكتملت ثقافة أبي مسور عزم على الاستقرار في الجزيرة فوجد شيئا من العنث من النكار<sup>(11)</sup> في بداية الامر لكن سرعان ما استجلبهم بالحكمة والموعظة الحسنة وجاءته المؤازرة من بادية زواغة ومن جبل دمر وظل يطوف في أنحاء الجزيرة يعلم الناس الى أن ذاع صيته وأقبلت عليه وفود الاباضية من عدة جهات وقد كان يحسن ل هؤلاء جميعا ويطعمهم الطعام. ولما شعر بتزايد عدد التلاميذ أسس لهم مأوى يجمع شملهم ويكون مدرستهم، فشرع في بناء الجامع الكبير، فكان خاتمة أعماله اذ توفاه الله قبل أن يتمه<sup>(12)</sup> في النصف الأول من القرن الرابع.

فكان هذا الجامع أشهر مدرسة علمية اباضية وقد تخرج منها ودرس فيها أشهر علماء الاباضية.  
وان لم يترك أبو مسور مؤلفات فيكفيه أنه أسس هذا الجامع وأسس مدينة حومة السوق<sup>(13)</sup> وكوّن رجالات كان لهم

الفضل في مواصلة عمله.

نذكر منهم أولا ولده فصيل ابن أبي مسور الذي أنهى بناء الجامع الكبير وحرص على المشاركة في ثورة أبي خزر ضد الشيعة لكن عندما بلغه خبر فشلها غير منهجه في الحياة وعمل على إرساء قواعد نظام العزابة بتكليف تلميذه أبي عبد الله محمد ابن أبي بكر بأن يقوم بهذه المهمة وأرسل له وفدا من الجزيرة يضم ولديه يونس وفصيل ليكون نواة للحلقة الأولى، وفعلًا نفذ التلميذ رغبة شيخه فكانت السيرة المسورية البكرية نسبة الى ابن أبي مسور وله فضل التحريض والى ابن أبي بكر وله فضل استفراغ جهده في وضع قوانينها.

ونظام العزابة الذي كان ثمرة من ثمار الحركة العلمية بجربة، وهو هيئة اسلامية تقوم مقام السلطان عند غيابه للاشراف على جميع حاجيات الأمة الدينية والدنيوية عدا اقامة الحدود، ويفضل هذا النظام الذي ما يزال قائما في وادي ميزاب استطاع الاباضية أن يحافظوا على كيانهم الى يومنا هذا<sup>(14)</sup>.

ويكفي الشيخ فصيل فخرا أنه كان سببا في إرساء قواعد هذا النظام وان لم تذكر له المصادر مؤلفات وقد توفي في العقد الرابع من القرن الخامس هجري.

ثم نذكر تلميذه أبا محمد عبد الله بن مانوح اللمائي وهو أحد أعضاء اللجنة التي تعاونت على تأليف ديوان العزابة وهم جماعة غار مجماج<sup>(15)</sup> أبو عمران موسى بن زكرياء، أبو عمرو التلي، أبو يحيى زكرياء ابن جرنار، جابر بن سدرمام، كباب بن مصلح المزاني، وأبو مجبر توزين المزاني.

ويعتبر من أقدم الموسوعات الفقهية وقد طبع منه قسم الطهارات واليه يشير البرادي في رسالة الكتب بقوله، «وكتاب الأشياخ أعني الديوان يكون في ستة أسفار صغار أو ثلاثة كبار<sup>(17)</sup>».

ثم نذكر تلميذه الثالث أبا محمد ويسلان وهو أول من ترأس نظام العزابة في جربة وقد كان مختصا في علم الفروع، فتكونت حلقتان : احدهما على أبي محمد ويسلان، وقد وقف بهم عند أبواب الفقه وحرص تلاميذه على تدوين ملاحظاته وعرضها عليه فكان كتاب الوصايا والبيوع<sup>(18)</sup> والثانية حول أبي الربيع سليمان بن يخلف في أصول الدين وكانت منطلقا لكتابه المسمى : «كتاب التحف»<sup>(19)</sup> ويقول عنه البرادي من أشرف تصانيف أهل الدعوة في الأصول والكلام.

وتكون وفاة الشيخ أي محمد في النصف الثاني من القرن الخامس هجري.  
ثم يرفع المشعل بعد هؤلاء التلاميذ حفيدا الشيخ أبي مسور وهما زكرياء ويونس ابنا فصيل طيلة النصف الثاني من القرن الخامس وتروي كتب السير أن الشيخ زكرياء بقي مهتما بالتدريس فارا من تحمل المسؤولية الى أن توفي المشايخ فصار يركب حمارا كل جمعة ويتفقد أهل الدعوة في جربة يصطحب معه الفتيان امرا بالخير ناهيا عن المنكر معلما السير مميتا للبدع هذا دابه حتى مات رحمه الله سنة 308 هـ<sup>(20)</sup> أما أخوه يونس فقد كان مؤازرا له ومهتما بتدريس أصول الدين.

وبعد موت زكرياء ويونس عرفت الحركة العلمية بجربة بعض التراجع وذلك لما عرفته الجزيرة من كثرة الفتن بداية من حملة المعز بن باديس سنة 431 هـ الى حملة النصاري سنة 529 هـ فقتل عدد من العلماء وأقبل التلاميذ في هذه المرحلة على وارجلان حيث برز علماء أقطاب أمثال الشيخ أبي عمار عبد الكافي وغيره<sup>(21)</sup>.

ولم يعرف هذا القرن إلا أسماء قلائل استطاع أصحابها أن ينقلوا لمن بعدهم ما وصلهم من تراث وهم داود بن ويسلان والقاسم الزواغي وأبو مسعود وابنه فصيل وزكرياء وهؤلاء الثلاثة من أحفاد أبي مسور؛ ويقول الدرجيني عن فصيل ابن أبي مسعود أنه، جدد من السير ما أشفى على الانقراض<sup>(22)</sup>.

ثم يعرف القرن السابع حركة دؤوبا للحرص على إحياء ما اندرس على يدي الشيخ أبي محمد عبد الله الصديغاني والشيخ

(3) السير ص 161.

(4) زمن امامة يوسف بن محمد بن أفلح الرستمي.

(5) طبقات الدرجيني ج 1، ص 86.

(6) انظر. ط حجرية لشرح الخاتمة من ص 8 الى 10.

(7) سير الشماخي ص 124 وهم أبو الخطاب عبد الأعلى. عبد الرحمان بن رستم عاصم السدراتي، اسماعيل بن دارار الغدوسي أبو داود القبلي.

(8) انظر : مجلة الدراسات السامية، الأستاذ النامي ص 65.

(9) كل هذه المخطوطات موجودة بالبارونية جربة.

(10) طبقات الدرجيني ص 189.

(11) سير الشماخي 346.

(12) كتاب السيرة ج 1، ص 150.

(13) سير الشماخي ص 404.

(14) أبو اليقظان ابراهيم، الاباضية في افريقيا ج 3 ص 15.

(15) انظر دراستنا عن العزابة ط المطبعة العصرية تونس 1975.

(16) يوجد الغار بحومة مجماج بجربة وقد بني حذوه مسجد يعرف بجامع الغار أو جامع ابن بيان.

(17) الجواهر للبردي ص 220.

(18) مفقود.

(19) وتوجد نسخة منه بالبارونية.

(20) سير الوصيلاني ص 58.

(21) انظر محاضرة الدكتور النامي : الاصال : الجزائرية عدد 42 فيفري 1977 ملاح عن الحركة العلمية بورجلان.

(22) الطبقات ج 2، ص 505.

صالح بن نجم المغراوي أما الأول فقد اهتم بالمصالح الاجتماعية وأما الثاني فقد عكف على التدريس في الجامع الجديد مدة أربعين سنة.

وفي هذه الأثناء عرفت الحركة العلمية بجزية دفعا جديدا سيكون له بعيد الأثر فيما بعد ويتمثل في وصول عدد من الكتب من بلاد عمان، وطلب العمانيين من المغاربة أن يدونوا سير أسلافهم فكان كتاب طبقات الدرجيني وهذه قصته كما يرويها البرادي في كتاب الجواهر<sup>(23)</sup> «ذكر لي بعض العزابة أن سبب تأليف أبي العباس هذا الكتاب، لما وصل الحاج عيسى ابن زكرياء من بلاد عمان بما معه من الكتب كحل ابن وصاف، وجامع الشيخ أبي الحسن، وجامع ابن جعفر وغيرها، فكان مما رغب إليه فيه اخوانه أن قالوا له وجهوا لنا كتابا يتضمن سير أوائلنا، ومناقب أسلافنا من أهل المغرب من لدن وقع فيه مذهبنا إلى هلم جزا فانه قد عميت علينا أباؤهم وغابت عنا آثارهم من بعد الشقة، وعظم المشقة، فشاور من بجزية يومئذ من العزابة والفقهاء ومن يشار بالبنان إليه من الخذاق والنهلاء وقرر طلبه أخوانهم اليهم ووصف لهم الكتاب المشروط عليهم فنظروا... فلم يروا أهلا لهذا التصنيف غير أبي العباس الدرجيني، فعندها طلبه الحاج المذكور وهو السائل الذي وجبت طاعته».

وفعلا فقد كان وما يزال كتاب طبقات الدرجيني جامعا لسير مشائخ الإباضية ولا يستطيع أن يستغني عنه باحث في هذا المضمار وقد وفرت الحركة العلمية بجزية لصاحب الطبقات جميع ما يحتاج إليه من المصادر فجاء كتابه في لغة أدبية راقية خاصة مما عرفه كتاب السيرة وأخبار الأئمة<sup>(24)</sup> من رطانة في الأسلوب.

كما تضم المصادر في هذا العصر الشيخ ابن جميع تلميذ الدرجيني وقد كان كبير المدرسين بجامع تيفروجين وترجم عقيدة التوحيد عن البربرية<sup>(25)</sup>.

ثم تشر جهود الشيخ صالح بن نجم المغراوي تلميذه الشيخ يعيش بن موسى الزواغي الذي انتقلت معه الحركة العلمية إلى جامع وادي الزيب<sup>(26)</sup> هذه المدرسة العلمية التي صانت هذه الحركة العلمية طيلة القرن الثامن والتاسع هجري وقد سطع نجم هذه المدرسة خاصة مع الشيخ أبي الفضل أبي القاسم ابن ابراهيم البرادي وتوافد عليها الطلبة من أهل الدعوة من كل مكان وفي ذلك الجو الحافل ألف الشيخ البرادي كتابه «الجواهر المنتقاة في أتمام أحل به كتاب الطبقات» فأثبت فيه موقف الإباضية من الفتنة الكبرى بكل وضوح وألح كل الإلحاح على ضرورة التمييز بين الإباضية والخوارج. كما حفظ فيه رسالة الإمام عبد الله بن اباض إلى الخليفة عبد الملك بن مروان وهي من أخطر الوثائق التاريخية لإبراز موقف الإباضية من أحداث ذلك العصر ولتوضيح موقف الإمام من الدعوة إلى الله تعالى بجزاة نادرة. ولا يفوتنا أن نذكر رسالته في ذكر تأليف أهل المغرب وتآليف أهل المشرق وهي ان دلت على شيء فإنما تدل على ما عرفته المكتبة الإباضية من تراث ومن شمول. كما أن للبرادي رسالة ذكر فيها حقائق أكثر مسائل العلم وحدودها وشيئا من الاعتقاد والتوحيد أجاب بها الشيخ أبا عبد الله محمد بن أحمد الصدغياني وهي من الأهمية بمكان رغم اختصارها<sup>(27)</sup>.

كما أن للبرادي مؤلفات أخرى نذكر منها : كتاب شفاء الخائم على بعض الدعائم<sup>(28)</sup> لم يكمله إذ شرح جزء الطهارات فقط وقد جمعه تلاميذه من بعده وكتاب شرح العدل والانصاف<sup>(29)</sup> وسماه البحث الصادق والاستكشاف عن حقائق أسرار معاني كتاب العدل والانصاف وهو في أصول الفقه وتوجد نسخة منه بالبارونية<sup>(30)</sup>.

تلك ثمرة من ثمار هذه الحركة العلمية ستضم إليها ثمرة أخرى من ثمار الحركة العالمية بجبل نفوسة بعد ان وجدت من العنت ما وجدت من جلاء حسد الحساد بطرابلس وهذه الثمرة هي : الشيخ اسماعيل الجياطلي الذي سيفرد له الأستاذ الصادق بن مرزوق حديثا في هذا الملتقى.

(23) الجواهر ص 11.

(24) أبو زكرياء يحيى بن أبي بكر ق 5-6 هـ.

(25) وهي مطبوعة وهي عمدة جزية وميزاب تحفظ بعد القرآن والسنة.

(26) انظر نظام العزابة ص 247 هـ.

(27) مخطوطة بمكتبة الشيخ سالم بن يعقوب وبالبارونية.

(28) منظومة الاحمد بن نظر العماني - ط. في الفقه.

(29) أبو يعقوب الوجيهاني.

(30) وستقدم حلقة ثالثة في كلية الشريعة عن البرادي قريبا.

وهكذا تشهد الجزيرة في هذا القرن ميلاد مجموعة من الآثار الإسلامية منها ما طبع ومنها ما يزال ينتظر دوره في شتى فنون العلم. وننتقل بسرعة إلى القرن العاشر بعد أن نلمح إلى ما عرفته الجزيرة من حركة زمن ابني الشيخ البرادي عبد الله ومحمد، ولقد كان لهما باع طويل في المناظرة نذكر منها تقدم الشيخ عبد الله لمناظرة علماء تونس زمن أبي فارس الحفصي<sup>(31)</sup>، والشيخ زكرياء بن أفلح الصدغياني وله منظومة في الفرائض تضم 84 بيتا أشار إليها الشماخي<sup>(32)</sup> وتوجد بمكتبة الشيخ سالم نسخة منها<sup>(33)</sup>.

أما القرن العاشر فقد سطع فيه نجم الشيخ أبي النجاة يونس بن تعاريت ويكفيه أنه كان قائد الجيش الجربي إلى جنب الشيخ أبي زكرياء السمويني ضد حملة النصارى سنة 916 هـ تلك الحملة التي صالت في كامل سواحل إفريقيا من وهران إلى طرابلس فانكسرت شوكتها أمام هذه الفئة القليلة من المؤمنين وقد اعتصمت بالله رغم قلة العدد والعدة فقيض الله لها نصرا مبينا «كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله» والمحاضرات في هذا الموضوع كثيرة.

وان لم تصلنا عن الشيخ يونس إلا بعض الفتاوى مما جمعه تلميذه سلامة الجنائني فإنه كان سببا في إحياء وادي ميزاب حيث استجاب لطلب اخوانه الذين جاؤوا يبحثون عن عالم متطوع ينحى ما اندرس من آثار السلف فانتخب لهم تلميذه سعيد بن علي الجربي الخيري وأحسن الاختيار واليه يرجع الفضل فيما شهدته جبال بني مصعب من حركة علمية وما تزال تشهده إلى الآن ولا شك أن هذا سيكون محور حديث الوافدين من الوادي.

ونرى لزما علينا هنا أن نذكر الشيخ أبا العباس أحمد الشماخي إذ يذكر التعاريتي في رسالته عن علماء جزية أنه توفي سنة 928 هـ ودفن بمقبرة مسجد تواجن. كما يؤرخ الشماخي لشرحه لعقيدة التوحيد بما يلي : فرغت منه في أوائل شعبان عام أربعة وتسعمائة، وهو العام الثاني من اخراج المسلمين النصارى من جزية، كما أنه تعلم على الشيخ أبي يوسف يعقوب بن صالح التندميرتي تلميذ الشيخ أبي النجاة التعاريتي كما أنه درس بتونس وكل هذا سيكون له أثر فعال في مؤلفاته وان كانت جل اقامته بالجليل، وأهمها كتابه السير المشهور في أخبار علماء أهل الدعوة المرضية من زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى زمانه.

وكتاب شرح عقيدة التوحيد للشيخ ابن جميع وقد أشرنا إليه من قبل «مطبوع».

وكتاب اعراب مشكل الدعائم وقد انتهى من تأليفه سنة 880 هـ وبالبارونية نسخة منه نسخت سنة 1089 هـ.

وكتاب شرح مرج البحرين للشيخ أبي يعقوب الوجيهاني في المنطلق لم اطلع عليه.

ورسالة في الرد على صولة الغدامسي مخطوطة بالبارونية، ورسالة في حكم المفقود والحامل له على تأليفها اختلافه مع علماء عصره بجزية.

وله عدة فتاوى وكل مؤلفاته تبدل على سعة اطلاعه وتمكنه في العلوم الإسلامية على اختلاف أنواعها.

وقد شهد هذا القرن بطولة الشيخ أبي سليمان داود التلاقي الذي أخذ العلم من جزية ومن الجبل ومن وادي ميزاب وساد بجزية وتصدى لهجمات درغوث باشا وبين له أنه هو سبب البلاء في جزية بقوله «بل الفساد من قبلك لتقديرك الاسافل» فسجنه ثم أمر بقتله سنة 967 هـ<sup>(34)</sup>.

وهكذا نصل إلى القرن الحادي عشر حيث تذكر المصادر استمرارية حلقات العلم مع الشيخ عبد الرحمان الجليلاني حامل علم المعقول من القاهرة والشيخ سعيد بن محمد التغزويني وقد كان مهتما بالتدريس بجامع وادي الزيب (متوفى 1073 هـ) والشيخ قاسم اليونسي وقد عرف بحركيته في توسيع جامع الشيخ بحومة السوق وقد توفي 934 هـ.

إلا أن الحركة العلمية بالجزيرة شهدت في النصف الثاني من هذا القرن ثلاثة أقطاب وهم : أولا : الشيخ عبد الله بن سعيد السديوكشي ويذكر ابن تعاريت أنه تولى رئاسة مجلس العزابة وكان يحكم بين المتخاصمين في مسجد بني لاكين، وهنالك يجتمع عليه غالب فقهاء الجزيرة...، وله في الكلام اليد العليا... وله مؤلفات عديدة منها :

○ حاشية كتاب الايضاح للشيخ عمر الشماخي ط.

○ حاشية على كتاب الديانات للشيخ عامر الشماخي.

(31) سير الشماخي ص 575.

(32) نفس المصدر ص 576.

(33) دفتر رقم 1، ص 36-37.

(34) نسبة الدين ملحق السير ص 583.

وله رسائل أخرى وفتاوى منها ما طبع ومنها ما يزال مخطوطاً. وقد توفي سنة 1068 هـ بمكة المكرمة.

ثانياً: الشيخ أبو عبد الله محمد بن عمر ابن أبي سنة اشتهر بالمحشي. لقد ارتحل إلى مصر بعد أن حفظ القرآن في الجزيرة وبقي هناك دارساً ثم مدرساً من 1040 هـ إلى 1068 هـ أي 28 سنة ثم استقر بالجزيرة فظل حريصاً على إحياء حلقات الدرس ينتقل بين سدويكش وقلالة وغيزن وغيرها وبمسجد بني لاكين كانت أهم هذه المجالس حيث يجلس للحكم بين الناس. كما أن هذه الحركة لم تمنعه من التأليف فكانت حواشيه على جل كتب الإباضية ذخراً للكتاب الإسلامي إذ جاءت دراسات مقارنة بين مختلف آراء علماء الإباضية وبين آراء علماء الإسلام عامة، وهذا تلميذه علي بن بيان جامع حواشيه يذكرها كلها في آخر حاشية كتاب القواعد للشيخ اسماعيل وهذه الحاشية (على القواعد) هي أول تصانيفه وقد بدأها في أواخر سنة 1057 هـ وما صنفه رحمه الله حاشية على كتاب الوضع<sup>(35)</sup> في سفر ضخمة. ومنها حاشيته على كتاب الترتيب في الحديث الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في أربعة أسفار<sup>(36)</sup> ومنها حاشية على كتاب البيوع للشيخ عامر الشماخي<sup>(37)</sup> ومنها حاشية جلييلة على مختصر العدل وشرحه لمعنا أحمد بن سعيد الشماخي رحمه الله إلا أنه لم يكملها<sup>(38)</sup>... ويعدد له حوالي عشرين حاشية لم ثم يذكر... «كلما دخل يده كتاب وأمعن فيه النظر وكتب عليه ما تيسر له...».

ذلك هو عطاء الشيخ المحشي للثقافة الإسلامية عطاء يدل على موسوعية الرجل وعلى نزعة التعليمية في الأخذ بيد القارئ حتى يجعله بين سيل من المراجع تغنيه في أغلب الأحيان عن البحث والعناء.

وقد توفي رحمه الله بجزيرة سنة 1088 هـ.

ثالثاً: الشيخ سليمان بن أحمد الجليلي (متوفي 1099) لا شك أنه درس في مدرسة وادي الزيب وتمثل أهميته فيما ترك من رسائل موجزة إلا أنها حافلة يضبط تاريخ شتى الوقائع الطبيعية والحملات الصليبية مع محاولة لتحديد تاريخ وفاة عديد من العلماء وهذه الرسائل كانت منطلقاً أساسياً لرسالة الشيخ سعيد بن تعاريت (متوفي 1089 هـ) وتعتبر بمثابة الملحق لسير الشماخي، ولقد حققنا رسالته في عزابة الجزيرة<sup>(39)</sup> وعسى الله أن يمن بتحقيق رسالته في مشاهد الجزيرة.

وبوفاة الشيخ سليمان بن أحمد الجليلي يطل علينا القرن الثاني عشر وقد عمل على مواصلة الحركة فيه الشيخ يوسف ابن محمد المصعبي وولده محمد بن يوسف المصعبي.

ويذكر ابن تعاريت عن الشيخ يوسف الذي دخل جربة مع والده انه كان مهاب الجانب يعظ الأمراء والحكام ولا يخشى في الله لومة لائم. وقد كان ضمن الوفد الجربي الذي مثل الجزيرة بالملتقى العلمي الذي انعقد بلالوت سنة 1103 هـ للنظر في قضية فقهية.

وله عدة حواش وقد اعتبر المحشي الثاني ونذكر منها.

(1) حاشية على تفسير الجلالين<sup>(40)</sup>.

(2) حاشية على كتاب الديانات للشيخ عامر<sup>(41)</sup>.

(3) حاشية على كتاب الشيخ تبغورين بن عيسى الملسوطي في أصول الدين<sup>(42)</sup> وهي اتمام لعمل شرع فيه المحشي (أبو ستة).

وهذه الحواشي تدل على طول باع الشيخ يوسف المصعبي وهي تيسر ما في هذه المختصرات من مغلفات في مستوى اللغة وفي مستوى المعاني بحيث تغني القارئ عن عديد المراجع.

ويذكر له ابن تعاريت حواشي أخرى منها ما أطلعنا عليه ومنها ما لم نطلع عليه.

وقد توفي رحمه الله سنة 1088 هـ.

(35) طبعة حجرية بالبارونية.

(36) انظر البارونية — مكتبة الشيخ حمو بغارداية. وطبعت برنجيار سنة 1308 هـ.

(37) مطبوع 1971 بيروت.

(38) لم أطلع عليه.

(39) ملحق نظام العزابة ص 324.

(40) مخطوطة بالبارونية كاملة.

(41) ج بالبارونية أيضاً.

(42) موجودة بمكتبي الخاصة.

أما ولده الشيخ محمد بن يوسف المصعبي (متوفي 1207 هـ) فقد تولى منصب والده في جميع الأمور من رئاسة مجلس العلم والحكم والتدريس والفتوى بمدرسة الجامع الكبير ونعرف من مؤلفاته. شرح الحاشية (لأبي نصر فتح بن نوح الملوشتاني) ط. جربة مصر 1315 هـ.

وقد أثبت في بداية الشرح وثيقة هامة بين فيها نسبة الدين وهي سند الإباضية عبر العصور جيلاً بعد جيل<sup>(43)</sup>. واثراً وفاة الشيخ محمد المصعبي اسندت رئاسة العلم بالجامع الكبير للشيخ سعيد بن عيسى الباروني (متوفي 1284 هـ) وهو شيخ بن تعاريت صاحب الرسالة في تاريخ جربة (1289 هـ) وقد ذكر أسماء بعض المدرسين في عدة مساجد. إلا أن شكواه مما في عصره «ومع هذا الضعف في العلم والرأي تجدهم لا يتحدثون على لفظة وكل مقتنع برأيه وما عنده من علم» تدل على أن السفينة فقدت الریان وأمة بدون قيادة — انهيار نظام العزابة — لا يمكن أن تستقيم فيها حركة علمية وهكذا صارت هذه المدارس خاوية على عروشها شيئاً فشيئاً وحق للشيخ سعيد بن أيوب الباروني (ق 11 هـ) ان يقول:

سلوا كلكم جميعاً تلك المساجد وما السبب في خراب تلك المعابد  
فصارت خلاً واليوم فيها غوارد وكانت منهاهلاً لدى كل وارد  
شكوت الى رب معين وناصر<sup>(44)</sup>

فماذا يقول يا ترى لو شاهد زوالها من الخريطة تماماً؟ هكذا في نهاية هذا البحث يمكن أن نستنتج ما يلي:

لقد استطاعت هذه الحركة العلمية أن تصمد أمام صدمات الزمان عصوراً طويلة ذلك أن هذه الجزيرة تعرضت عبر تاريخها لهجومات عنيفة من الفاطميين والصنهاجيين وبصفة خاصة من الصليبيين ناهيك أنها بقيت تابعة لصقلية مالا يقل عن 75 سنة. 50 متواليات و 25 متفرقات.

كما أنها تمكنت من تمويل ما فيها من مدارس علمية وكثرة المساجد أكبر دليل على ذلك يقبل عليها الطلبة من أطراف البلاد، ويقول الشيخ عمر بن سعيد بن محمد بن زكرياء في رسالة وجهها الى الامام بلعرب سلطان بن مالك إمام عمان 1091 هـ 1204 اثر زيارته الإباضية هناك:

«واخبرك يا نعم السيد ببعض أحوال جربة من أهل هذه الدعوة أي الإباضية في زماننا هذا مع ضعفهم وقتلهم وسوء حالهم ومعهم من مدارس العلم ما يزيد على العرشين كل يعلم قدر علمه» تحفة الأعيان ج 2 ص 80.

واعتماد هذا التمويل على ما يتطوع به أهل الاحسان من أوقاف وللبرادي رسالة في طريقة توزيع الأوقاف.

كما أنها كانت على اتصال وثيق بسائر مواطن الإباضية من أطراف جبل نفوسة الى حوزة وأرجلان عبر قابس وبلاد الجريد دون الغفلة عن جبال بني مصعب وأطراف عمان أفادت واستفادت عن طريق الاتصال المباشر وعن طريق المراسلات أمدت هذه النواحي. بالعلماء عندما تقلص منها العلم واستعانت بهم عند الحاجة.

وعن هذه الحركة العلمية انبثق علماء اجلاء حرصوا على أن يكون الاسلام عقيدة وقولاً وعملاً، وعملوا ما في وسعهم على أن تبقى بلادهم مسلمة رغم عنف الحملات الصليبية وحرصها على اخراجها من خريطة العالم الاسلامي كما أخرجت صقلية وبلاد الأندلس، فبقيت هذه الجزيرة بفضل الله ويفضل صمودهم تحمل لواء الاسلام.

وقد سال مداد أقلام هؤلاء العلماء الممثلين لأمر الله تعالى «اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم» فخلد آثاراً في مختلف فنون العلوم الاسلامية تمثل نزعة فكرية مستقلة لها أسسها الثابتة في فهم كتاب الله تعالى وفي فهم حديث الرسول عليه السلام وفي استنباط ما تحتاج اليه الأمة من أحكام.

ورغم هذه الاستقلالية الفكرية التي توحى بفكرة الانغلاق لا يفتأ القارئ ينطلق مع هذه التصانيف حتى يلمس أن جلها قائم على المقارنات وهي أكبر دليل على الانفتاح ورحابة الصدر ولن يتردد المحشي وغيره من ايراد آراء جل المذاهب الاسلامية في قضية ما بعد تقرير موقف الإباضية منها.

وهذه المصنفات منها ما برز الى الوجود وصار في عداد المفقود — مثل كتاب الجواهر وسير الشماخي — ومنها ما يزال ينتظر هم الباحثين عسى أن يتخلص من عبث السوس وتراكم الغبار.

ونختم من حيث بدأنا، فنلمس اننا لم نقف إلا عند القليل من ذكرهم الجليلي في جولته عبر المساجد والمشاهد فإلى جولة أخرى إن شاء الله تعالى والله الموفق الى أقوم السبل.

(43) انظر ص 2 من المحاضرة.

(44) ملحق نظام العزابة ص 335.

# المناسبات العثمانية مع جزيرة جربة أثناء حكم سليمان القانوني

الدكتور عبد القادر قرخان

## ملخص المحاضرة

لقد جاءت آمية الدول العثمانية بفتح البحر المتوسط خلال القرن الخامس عشر الميلادي وتأسست هذه الدولة ثم تحققت بشكلها المعروف وزاد اتساعها ونموها خلال حكم السلطان سليمان القانوني (1520 — 1066). لأن فتح جزيرة رودوس وطرابلس الغرب وتونس والجزائر وخضوع جميع هذه الأيالات لإدارة الدول العثمانية قد تم هذا كله تحت عمادة كل من خير الدين بارباروس، طوغور باشا (رئيس) وبياله باشا والذين كانوا ذوي كفاءة بالغة ونالوا شهرة عالية باعتبارهم قادة بحر مهرة والذين قد أنشأهم ونحتهم هذه الدولة العليا.

(هنا سوف نلقي نظرة على جهاد جزيرة جربة — والذي لم ينظر اليه بصورة جدية من قبل — من خلال مخطوطة تحت اسم «فرح» لكتابها «زيرك زاده» والموجودة باستانبول في «مكتبة حجي سليم آغا» باسكدار تحت رقم 768 وحيث أن هذه المخطوطة يعتبر بحق الأساسي الوحيد الباقي والذي يوضح لنا عن قرب المناسبات العثمانية مع جزيرة جربة.

والكاتب يعرف نفسه في هذه المخطوطة مشيراً بقوله : «مدرس السراي العامرة» وأحد أبناء «الباهيين» زيرك زاده. وعندما كان كاتباً للترسانة، سنة 1560 حيث يبين لنا أنه قد كلف بتوزيع المعاشات التي اعطيت من طرف الخليفة في الأسطول البحري الذي تم من بفتح البحر الأبيض المتوسط بقيادة بياله باشا.

ويحكى لنا كاتب هذه المخطوطة والتي تتكون من خمسة فصول يحكي لنا قصة الاستيلاء على جزيرة جربة ومعاركها في الفصل الثالث مع قصة الاستيلاء على مالطة الصغيرة (كوزه) ورحلته مع بياله باشا.

كما أن في هذه المخطوطة سرداً كاذباً لقصة القبض على قلوب عساكر المسيحيين في سواحل جربة وانقسم الفاتحون الى قسمين : الأول لفتح البحر المتوسط والثاني للاحتفاء في قلعة جربة.

لقد صادفت هذه المعركة «ليلة البراة» وحيث أن هذه الحرب قد قادها اناس آمنوا برهم شاكرين فجاءت بنتائج باهرة وينصر عزيز.

# الجهود العلمية لعلماء جربة في وادي ومزاب وكبريات المدن الجزائرية خلال العصر الوسيط

فخار ابراهيم

## ملخص بحث

تقديم : يشتمل البحث على أربعة عناصر رئيسية وعدة نقط فرعية مندرجة ضمن العناصر الأربعة.

العنصر الأول : أوجه التشابه وأوجه الاختلاف بين المجتمع الجربي.

## العنوان العام ومجتمع بني ميزاب

أ) البعد التاريخي والزمني لأوجه التشابه بين المجتمعين

(1) المذهب الاباضي أولا

(2) التبعية السياسية لدولة بني رستم ثانيا

(3) عدم التبعية السياسية لأي نظام بعد سقوط تيهرت

(4) الموقع الجغرافي للمجتمعين :

1 — جربة جزيرة في عرض البحر الأبيض وفي مواجهة كل الأقطار.

2 — وادي ميزاب جزيرة صحراوية منعزلة في عرض الصحراء.

ب) البعد التاريخي لأوجه الاختلاف بين المجتمعين

(1) لمحة تاريخية عن وضعية مجتمع بني ميزاب في القرنين 14 و 15 م.

(2) المجتمع الميزابي في طور النشأة الاجتماعية والسياسية.

(3) تفاوت التركيبة الاجتماعية والنظرة المذهبية بين الجريين وبني ميزاب

في جربة :

— المجتمع الجربي متكامل المقومات الاجتماعية

- العصبية القبلية
- استقرار النظام الزراعي
- الازدواجية في المذهب الواحد

#### في وادي ميزاب

- عدم استكمال المقومات الحضارية لظهور مجتمع اباضي جديد
- الوحدة المذهبية المتمثلة في الاباضية الوهية والتبعية الروحية لبني رستم.
- البحث عن الذات.
- علاج المتناقضات الناجمة عن هجرات جماعات وقبائل غير متجانسة.

#### العنصر الثاني : ويشتمل على خمسة عناوين فرعية

#### العنوان العام استجداد بني ميزاب بحرية وعلمائهم

- (1) لماذا وقع الاختيار على جربة العصر الوسيط
- (2) كيف تمت المداولات بين أعيان وادي ميزاب؟ وكيف تم الاتفاق على طلب النجدة من جربة.
- (3) لماذا لم يتوجه بنو ميزاب الى جبل نفوسة كما فعل بنو رستم الذين قامت دولتهم على «أموال زناتة وسيوف نفوسة».
- (4) هل هذا يعني :

- تقلص المذهب واعتماد أنصاره على جهة معينة
- أن ظروف نفوسة في القرنين 14، 15 لم تكن تسمح بالمساعدة.
- تطور الفكر السياسي عند اباضية المغرب الأوسط.

- (5) ممن كان يتكون وفد بني ميزاب الى جربة؟

#### العنصر الثالث : ويشتمل على تسعة نقاط فرعية

#### العنوان العام : اختيار عمي سعيد بن علي الجربي كعالم موفد من جربة الى بني ميزاب

- (1) من هو هذا الشيخ؟
- (2) التعريف به.
- (3) إلى أية قبيلة ينتسب؟
- (4) من رشح لهذه المهمة؟ اختياره من بين علماء آخرين.
- (5) ما هو دوره في المجتمع الجربي قبل اختياره كمنقذ أو مخطط لمجتمع بني ميزاب.
- (6) ما هي مؤهلاته العلمية وقدراته التنظيمية لمجتمع الأقلية.
- (7) ما هي المهمة السياسية أو العلمية التي انتدب اليها وفد جربة الى بني ميزاب.
- (8) ممن كان يتكون وفد الجريين المرافق للشيخ عمي سعيد.
- عدد العائلات؟ من هي؟
- عدد العلماء أو طلبة الحلقة.
- (9) القيمة التاريخية — مغربيا — لهذا الوفد الجربي.

#### ملحوظة :

سأعيد النظر أثناء البحث في هذا المصطلح المقبول تاريخيا من وجهة نظرنا والمرفوض ميزابيا واباضيا.

#### العنصر الرابع (ويحتوي على خمسة عناوين فرعية).

#### العنوان العام : الشيخ سعيد الجربي في وادي ميزاب

- (1) الخطوات والتدابير التي اتخذها الشيخ عمي سعيد لتنظيم المجتمع الميزابي الجديد
- (2) الشيخ عمي سعيد رئيس مجلس عزابة بني ميزاب.
- (3) مجلس العزابة الميزابي أو : مجلس عمي سعيد من تاريخ وصول الوفد الجربي التونسي الى يومنا هذا.
- مركزه الديني
- دوره الاجتماعي
- دوره السياسي
- دوره العلمي والتثقيفي.
- (4) مكانة عمي سعيد الجربي عند بني ميزاب اليوم.
- (5) آثاره ونتائجه.
- في بعض كبريات المدن الجزائرية.
- الاستمرارية في العلاقات بين جربة وبني ميزاب (الجزائر).
- تبادل الزيارات في المناسبات التاريخية الهامة.
- رأي الشيخ بيوض ابراهيم في الشيخ عمي سعيد الجربي وأعماله (على اثر استجواب كنسي أجري مع المرحوم الشيخ بيوض عام 1971)<sup>(1)</sup>.

(1) الشيخ بيوض ابراهيم آخر زعيم ميزابي وآخر رئيس لمجلس عمي سعيد توفي عام 1980.

# إشارة الى صاحب الحمار في رسائل اخوان الصفاء

Yves Marquet

قد اختتمت الرسالة السادسة من الجزء الرابع من رسائل اخوان الصفاء بقصيدة هي بلا شك اسماعيلية لأن غموضها يزول إن أولناها بواسطة أساس التأويل للقاضي النعمان، وانني انشدكم من هذه القصيدة الأبيات الآخرة :

|                          |                            |
|--------------------------|----------------------------|
| وما طلوع الشمس من مغربها | وما بين قرني مارد لا ينزجر |
| وكيف بعد نورها تكويرها   | والانجم الزهر عليها تنكدر  |
| وما هو الدجال اذ حذر من  | كل خلق وهو شخص ذو عور      |
| وكيف يجري عن جنائي جيشه  | من الجبال شامخات في الكبر  |
| فالجليل البصري فيه جنة   | فثمرة ذات رياض وزهر        |
| والاصفهاناني عليه أبدا   | نار تلظى ودخان منعكر       |

لم أعتز في أساس التأويل على ما يمكننا في فهم فحوى هذه الأبيات، إلا أن يتنا من هذه الأبيات يلفت أنظارنا الى شيء آخر ألا وهو ما معنى طلوع الشمس من مغربها؟ قد ورد في رسالة الأصول والأحكام لأبي المعالي بن عمران ابن زهرة ذكر ثالث الأئمة المستورين وذكر ظهور الدعاة لفتح دار الهجرة ثم ظهور الشمس من المغرب. وروى القاضي النعمان في كتابه المعنون بافتتاح الدعوة قصيدة من قصائد الحدثان كان قد بشر فيها بمجيء عبد الله المهدي قبل ظهوره في زعم القاضي، ومن قول الشاعر :

|                            |                          |
|----------------------------|--------------------------|
| وتطلع شمس الله من غرب أرضه | فلا توبة ترجى هناك لتائب |
| ويظهر من أبناء فاطمة امرؤ  | تقي نقى العرض جم المواهب |

فطلوع الشمس من مغربها اذن في بيتنا يشير الى فتح افريقيا والمغرب والى خروج قائم فاطمي من دور ستر الى دور ظهور أي يكون هذا القائم سابع أئمة دور ستر وأول أئمة دور ظهور. وأظن أن المادر الذي لا ينزجر يمثل، لا ذا القرنين، بل آخر الأغلبة. أما زوال نور الشمس فعندي أنه يريد بذلك وفاة القائم بأمر الله ثاني الخلفاء الفاطميين. وأما التوير فمعناه

ابتعاد أذوار الشمس ونقصان فيوضاتها المفيدة وقلة العارفين وكثرة الاشرار وانقطاع الوحي ومن المحتمل أن أشار به إلى ثورة أبي يزيد مخلد ابن كيدر صاحب الحمار. فأنصار الفاطميين كانوا يقولون لأبي يزيد الدجال والقاضي النعمان في افتتاح الدعوة سماه الدجال عدة مرات وجاء في قصيدة الحدثان المذكورة بصدد امرئ من أبناء فاطمة.

وبالأعشور الدجال ينهّد جمعه  
سوى عصابة في بادخ الطرد راتب  
ويقتله من بعد عيسى ابن مريم  
بقدره ربي ما له من مغالب

ولا شك في أن الدجال ذا العور هو في قصيدتنا أيضا أبو يزيد. وفي قصيدة الحدثان أشير بالطرد إلى موقع المعركة التي جرح وأسر فيها أبو يزيد. ومن الممكن أن تكون في جبلي قصيدتنا أيضا إشارة إلى موقف المعركة إلا أن الجبال في تأويل الاسماعيلية تمثل الدعاة ولذلك أظن أن الجبل الاصفهانى الجهنمي رمز جملة دعاة الخوارج وأنصار أبي يزيد والجبل البصري رمز دعاة اسماعيل المنصور الخليفة الفاطمي الذي غلب أبا يزيد. ومن الممكن أن أراد الشاعر زيادة على ذلك اخبارنا بأنه داع من دعاة دعوة البصرة ويجوز لنا الاستدلال بذلك كله على أن قصيدة اخوان الصفا نظمت في سنة 947 أي قبل أسر أبي يزيد بقليل.

وشكرا

## العلاقات السياسية بين طرابلس وجربة في القرن السادس عشر

حبيب وداعة الحسناوي

تحتل جزيرة جربة موقعا استراتيجيا ممتازا على طرف خليج قابس، فهي صالحة لتكون مركزا تجاريا لربط سواحل طرابلس وتونس، ومركزا حربيا لتموين السفن الغازية أو المدافعة عن تلك السواحل، وقد لفت هذا الموقع الممتاز أنظار الدول البحرية المتصارعة في البحر المتوسط منذ أقدم العصور، كالفينيقيين والرومان والبيزنطيين الذين تعاقبوا على حكم طرابلس، وكان لهم وجود فعال في جزيرة جربة. ومع بداية الفتح العربي لشمالي أفريقيا، يسجل لنا ابن عبد الحكم أنه في سنة 46 هـ (667/666 م) تم تعيين رويغ ابن ثابت الانصاري عاملا على طرابلس، وأنه قام في العام التالي بفتح جربة وقصبة وقسطيلة، مما يؤكد على أهمية الموقع الاستراتيجي الذي تحتله الجزيرة على طرف خليج قابس في تأمين الغارات على طرابلس من ناحية الشمال الشرقي.

والمعلومات التي نعرفها على نحو مؤكد عن تاريخ العلاقات بين طرابلس وجربة منذ الفتح العربي وحتى الحملة الأسبانية على شمال افريقيا في بداية القرن السادس عشر، تؤكد على تأثير طرابلس وجربة بالاحداث التي تتعرض لها المنطقة، وإن هذه الاحداث تترك آثارها أو تنعكس آثارها في العلاقات بين طرابلس وجربة، هذه العلاقات التي ترجمت نفسها في علاقات اقتصادية وتجارية وثقافية وصلات اجتماعية ما زالت آثارها باقية حتى اليوم، وفي تبعية سياسية، حيث أن طرابلس وجربة كانتا تخضعان في بعض الفترات إلى سلطة سياسية واحدة وكانت جربة تتبع طرابلس اداريا. ويمكن الاستنتاج أن تبعية جربة لطرابلس كانت تتأثر بالتطورات في المنطقة فهي في بعض الأحيان تخف، وفي أحيان أخرى ينجح أهل الجزيرة في تحقيق استقلالهم الذاتي وإقامة ادارات محلية في الجزيرة أو تتحول تبعيتها إلى تونس، وقد تقع الجزيرة تحت السيطرة المسيحية. وفي بداية القرن السادس عشر كانت جربة تتمتع بحكم ذاتي بعد أن تخلصت من السيطرة المسيحية، وقامت بها إدارة ذاتية. أما طرابلس فقد كانت تحكم ذاتيا أيضا وكان على رأس ادارتها الشيخ عبد الله، وكلاهما كانا في الأساس جزءا من الدولة الحفصية الآيلة إلى الانهيار والضعف.

وفي هذه الورقة سوف نحاول تتبع العلاقات السياسية بين جربة وطرابلس في القرن السادس عشر عندما كان البحر المتوسط والشمال الافريقي مسرحا للصراع الدامي والعنيف بين الدولة العثمانية وأسبانيا. فقد انعكس تأثير هذا الصراع على طرابلس وجربة على وجه الخصوص، وارتبط مصير جربة في هذه الفترة بمصير طرابلس، إذ كانت تحتل موقعا له أهميته الكبيرة بالنسبة لسلطات طرابلس، وأصبحت جزءا من المناطق التابعة لطرابلس منذ هزيمة الأسبان وفرسان القديس يوحنا في

طرابلس سنة 1551 م، وحتى بداية القرن السابع عشر عندما عادت تبعية الجزيرة لأباله تونس التي كانت تسعى أيضا، وحتى قبل أن تصبح أباله عثمانية سنة 1574 م، إلى مد سيطرتها على الجزيرة.

عندما احتل الأسبان مدينة طرابلس في صيف سنة 1510 م، سارعت قيادة قوات الاحتلال بتوجيه حملة ضد جزيرة جربة، وذلك بهدف تأمين الوجود العسكري الأسباني في طرابلس والحصول على قاعدة بحرية تموين الأسطول، قريبة من السواحل التونسية التي ستكون ميدانا للعمليات القادمة. ولهذا الغرض توجه بترودي ناقارو على رأس حملة بها جنود يتقنون اللغة العربية ومكونة من ثمانية مراكب شراعية لاستطلاع جزيرة جربة<sup>(1)</sup>، وكان يعتقد أنه قد يتمكن من احتلال الجزيرة بهذه القوة الصغيرة. ولكن الجربة الذين علموا باحتلال الأسبان لمدينة طرابلس، كانوا قد استعدوا لمواجهة الانزال الأسباني المحتمل، ونظموا دوريات لحراسة السواحل، وعندما أدرك دي ناقارو حجم قوة المدافعين عن الجزيرة، حاول التفاوض معها سلميا، فأمر بأن ينزل إلى البر ثلاثة من الجنود الذين كانوا يتقنون العربية ويحملون راية بيضاء، علامة على السلام، ولكن حرس الحدود هاجمهم بدون أن ينتظروا منهم حديثا، وقتلوا واحدا منهم وأجبروا الاثنين الآخرين على الفرار، حيث توجهوا إلى مراكبهم. ثم اقترب الحراس من ساحل البحر ووجهوا تحذيرا للسفن المعادية، جاء فيه: «إن الجربة يفضلون الموت على التسليم تحت أي شرط كان، ويأن شيخ الجزيرة وسكانها قد عقدوا العزم على الدفاع عن عقيدتهم وعن تراثهم ونسائهم وأطفالهم وممتلكاتهم كي لا يقعون غنيمة في أيدي النصاري»<sup>(2)</sup>، ولما رأى بترودي ناقارو أنه لا سبيل لاستسلام الجزيرة، أصدر أوامره بأن تفرد السفن أشرعتها وتعود إلى طرابلس بعد أن استطلع النقاط التي يسهل عندها انزال الجنود عندما يعود للهجوم على الجزيرة مرة أخرى.

وبعد رجوعه إلى طرابلس في 9 أغسطس بادر في الحال إلى إعداد حملة كبيرة ضد جربة، وقد بلغ عدد قوات الحملة 12 ألف مسلح، علاوة على قوة أخرى قوامها ثلاثة آلاف جندي، جاء بها غاريسا الفاريز التوليدي ومعه أحد اخوته وعمه فريدينايد، بالإضافة إلى عدد كبير من الفرسان الذين قدموا للاشتراك في الحملة.

وفي يوم الثلاثاء 27 أغسطس أبحر أسطول الحملة أسباني من طرابلس في اتجاه جربة. وفي صباح يوم الخميس ظهر الأسطول أمام شواطئ جربة. وكان شيخ الجزيرة أبا زكرياء يحيى السمومني، الذي رفض تسليم الجزيرة، قد أخذ وأولاده يخوضون الناس على الاستبسال والصمود في وجه العدو<sup>(3)</sup>، وقد استغل أهل الجزيرة حالة الطقس الخائق الشديد الحرارة، فأقاموا كائن للأسبان قرب آبار المياه، وعندما أخذت عساكر الغزو تتهاوت على آبار المياه هاجمتهم القوات العربية، وقتلت منهم أعدادا كبيرة تقدر في بعض المصادر بأربعة آلاف رجل، وتقدرها بعض المصادر العربية بعشرة آلاف قتيل<sup>(4)</sup>.

وكان من بين الموتى بعض الشخصيات الأسبانية الهامة، مثل دوق غاريسا دي توليدو، وابن دوق ألبا. وبعد هذه الكارثة التي حلت بالحملة غادر الأسطول جزيرة جربة يوم 31 أغسطس، وقد أسهمت الطبيعة في اتمام الهزيمة إذ قامت زواجر بحرية عنيفة أسفرت عن تخطيم عدد من سفن العدو ولم تصل بقايا الأسطول إلى طرابلس إلا بعد عناء شديد<sup>(5)</sup>.

ورغم فشل حملة أغسطس ضد جربة، فقد بادر دي ناقارو إلى معاودة المحاولات لتحقيق سيطرة أسبانية على أماكن أخرى جديدة على السواحل الأفريقية العربية، تعيد البريق لانتصاراته السابقة التي خبت بفعل هزيمة جربة. وفي نطاق هذه المحاولات قام في أكتوبر بمهاجمة المستير، ولكن هذه الحملة فشلت، ويعلل روسي فشل هذه الحملة إلى العواصف التي

(1) شارل فيرو الحوليات اللبية منذ الفتح العربي حتى الغزو الإيطالي الكتاب الأول. نقلها عن الفرنسية وحققها بمصادرها العربية ووضع مقدمتها النقدية: محمد عبد الكريم الوافي، طرابلس، ليبيا: دار الفرجاني (1973 م)، ص 83، كوستانزو برنيا، طرابلس من 1510 إلى 1850 م، تعريب: خليفة محمد التليسي، طرابلس - ليبيا: دار الفرجاني (1969 م)، ص 31.

(2) نفس المصدر، ص 84، محمد أبوراس الجري، مؤنس الأجرة في أخبار جربة حقيقه ومهد له وعلق عليه: محمد المرزوقي، تونس: المطبعة الرسمية (1960) ص 106 - 107. برنيا ص 31.

(3) شارل فيرو، ص 84 - 89، محمد أبوراس الجري، ص 107 - 108. أنوري روسي، ليبيا منذ الفتح العربي حتى 1911 م، تعريب وتقديم خليفة محمد التليسي - بيروت - لبنان: دار الثقافة (1974) ص 148.

(4) للمزيد من التفاصيل حول هذه الحملة، أنظر شارل فيرو الذي يذكر نقلا عن رواية مارمول أن الأسبان فقدوا ألفا وخمسمائة رجل، بينما يذكر روسي، ص 148 أن عدد القتلى في صفوف الغزاة قد ارتفع إلى أربعة آلاف بين قتيل وجريح. وفي رواية أخرى إلى الفين، وقارن مع محمد أبوراس الجري، ص 108 الذي يقول: «وهلك من الكفار ما يقرب من عشرة آلاف ورجعت بقية مراكبهم خائبة إلى طرابلس». وبرنيا ص 32.

(5) شارل فيرو، ص 90. روسي، ص 148 - 149. محمد أبوراس الجري ص 108. برنيا، ص 32.

أجبرت دي ناقارو على العودة إلى طرابلس بعد أن تكبد خسائر فادحة في سفنه ورجاله<sup>(6)</sup>. وفي الشتاء هاجم الأسبان جزيرة قرقة، ولكن هذه الحملة كان مصيرها الفشل أيضا. وهكذا لم يستطع الأسبان خلال السنة الأولى لاحتلالهم مدينة طرابلس تحقيق هدفهم في احتلال جزيرة جربة وقرقة وتأمين حماية استراتيجية لوجودهم في طرابلس.

بعد رحيل بادر دي ناقارو عن طرابلس، لا نجد في المصادر التي بين أيدينا أي ذكر لمحاولات أسبانية مباشرة لاحتلال جربة، وإن كان روسي يذكر أن قنصل فينيسيا بيارمو قد أخبر أن ثمان سفن، دون أن يذكر جنسيتها، قد خرجت قاصدة جربة ولكنها لم تتمكن من الاستيلاء عليها<sup>(7)</sup>.

وفي الوقت الذي أخذت تشتد فيه الحملات الأسبانية المسيحية على السواحل والموانئ المغربية، بدأت الامبراطورية العثمانية تتدخل في مصيرية وأحداث المنطقة وتبعث لها بالمساعدات والرسول وتعترف بنشاط القادة المحليين، باعتبارهم مسلمين ورعايا عثمانيين، وتدعم خططهم لانقاذ البلاد من السقوط في أيدي أعدائهم، فأخذت بالتالي تبرز وتتعاظم في الشمال الأفريقي القوة العثمانية، فظهر على المسرح السياسي الأخوين عروج وخير الدين بربروسا اللذين نشطوا في الدفاع عن السواحل المغربية ضد التحالف التقليدي بين الأسبان والعروش الحاكمة وقتئذ، وقد أدركا منذ البداية أهمية جزيرة جربة، والموقع الاستراتيجي الهام الذي تحتله في طريق المواصلات بين غرب وشرق البحر المتوسط فاتخذها قاعدة لهما سنة 1513، ويذكر صاحب أتحاف الزمان أن خير الدين بربروسا وأخاه قد اتخذوا من جربة محطة للسفن ونقطة انطلاق في نشاطاتهما البحرية في عهد السلطان الحفصي أبو عبد الله محمد بن الحسن<sup>(8)</sup>، وكان وجود بربروسا في جربة يشكل خطرا على الأسبان في طرابلس، لذلك، كان الأسبان يسعون إلى تفويض سلطة برباروسا المتنامية في الجزائر وطرده من قواعده في جربة، وذلك بحماية وتعزيز وجودهم في طرابلس، ولهذا الغرض فقد قاموا بعدة إجراءات لتقوية التحصينات الدفاعية حول طرابلس للتصدي لأي هجوم محتمل يقوم به بربروسا على المدينة. كما قام شارل الخامس بالعفو عن عبد الله شيخ مدينة طرابلس السابق سنة 1519 م، وأعادته إلى المدينة من منفاه في الجزر الإيطالية لاستخدامه في تهدئة السكان وحملهم على العودة إلى المدينة بعد أن انضم جزء كبير منهم إلى المقاومة العربية ضد الاحتلال والتي اتخذت من مدينة تاجوراء القريبة من طرابلس مركزا لها.

وأبضا، في إطار تعزيز الوجود الأسباني في طرابلس وعلى السواحل التونسية سبر شارل الخامس في سنة 1520 م، أسطولا إلى جربة التي كانت مركزا للنشاط البحري الاسلامي، وتمكن الأسطول المذكور من احتلال الجزيرة وفرض شروط للصالح يتعهد بموجبها شيخ جربة بدفع جزية سنوية لأسبانيا وبألا يمنح قواعد لرياس البحر المسلمين في الجزيرة، وأخيرا أن يقبل بارسال وفد إلى شارل الخامس لتوثيق الاتفاقية. ويذكر شارل فيرو أنه ما أن رحل الأسبان حتى أحرق شيخ جربة وثيقة المعاهدة ولم يلتزم بها<sup>(9)</sup>. ولكن الحسن الوزان، المعاصر لتلك الأحداث يذكر في كتابه وصف أفريقيا، الذي نشر سنة 1526، أن الاتفاقية المذكورة التي وقع عليها الامبراطور شارل الخامس لا زالت نافذة المفعول، وإن الامبراطور حدد خمسة آلاف روبل تدفعها الجزيرة سنويا لنائب المالك في صقلية<sup>(10)</sup>.

وعلى أية حال، فإن الاتفاقية فيما يبدو لم تدم طويلا، إذ سرعان ما زاد النشاط البحري العثماني في الحوض الغربي للبحر المتوسط، خاصة بعد اعلان تبعية الجزائر سنة 1518 م للدولة العثمانية، وبدء اتصال العثمانيين بقوات المقاومة الشعبية العربية في تاجوراء، وانضمام درغووث ريس إلى خير الدين بربروسا قبيل وفاته، حيث أصبح نائبا له، وقد أخذ درغووث يهاجم

(6) روسي، ص 149 - 150، شارل فيرو، ص 91 - 92.

(7) نفس المصدر، ص 149.

(8) أحمد ابن أبي الضياف: أتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان. الجزء الثاني، النشرة الثانية، تحقيق لجنة من كتابة الدولة للشئون الثقافية والأخبار، تونس والجزائر: الدار التونسية للنشر والشركة الوطنية للنشر والتوزيع بالجزائر (1977)، ص 10.

(9) روسي، ص 154. شارل فيرو، ص 94 - 95.

(10) الحسن بن محمد الوزان الزباني، وصف أفريقيا، ترجمة عبد الرحمن حميدة ومراجعة دكتور علي عبد الواحد. السعودية/جامعة محمد بن سعود الإسلامية. (1979). ص 469. وللمزيد من المعلومات حول هذه الحملة، أنظر أنوري روسي، المرجع السابق، ص 154، الذي يذكر أن قائد الحملة كان دون هوجو ري مونكادا وأنه كان تحت امرته مائة شرع وثلاثة عشر ألفا وخمسمائة جندي من المشاة، وألف من الفرسان، وأنه خسر ستائة رجل من قواته قبل أن يتمكن من احتلال الجزيرة وإجبار شيخها على توقيع اتفاقية تبعية للملك شارل الخامس.

السواحل الشمالية للبحر المتوسط ويهدد سفن أسبانيا وسفن الدويلات الإيطالية، وانشغل شارل الخامس في مشاكل السياسة الأوروبية، ولم يعد قادراً على توفير الحماية لطرابلس وجربة، فعمل على التخلص من طرابلس بأن تخلى عنها لفرسان القديس يوحنا سنة 1530م، التي اتخذت من مالطة مركزاً لها، أما جزيرة جربة، فقد أصبحت مركزاً لرياس البحر الأتراك، فقد اتخذ درغوث ريس من شواطئ الجزيرة ملجأً آمناً لسفنه يعصمها من هجمات الأسطول الأسباني، وظل محتفظاً بها على الرغم من محاولة فريق من أهلها إخراجها منها. وقد كاد في إحدى المرات أن يقع أسيراً في يد الأسطول الأسباني عندما وصل أسطول العدو بقيادة أندري دوريا إلى مرسى القنطرة وأطبق عليه الحصار في أبريل سنة 1551 بعد أن تمكن الأسبان من احتلال مدينة المهدية التي كان درغوث يتخذها قاعدة لشن غاراته على السفن والسواحل الأوروبية، خاصة سواحل إيطاليا، وكان درغوث باثماً في المرسى المذكور، وقد استطاع درغوث بسلسلة من المناورات والأعمال التمهيدية الذكية أن يجيز سفنه من البر وأجازها للجانب الآخر إلى عرض البحر دون أن يدري العدو بذلك. ونقل في ظلمة الليل المدافع والجنود التي كانت بالاستحكامات إلى السفن وأقلع دون أن يترك سوى خيام بالية تغطي الاستحكامات<sup>(11)</sup>، واتجه بأسطوله ناحية الشرق حتى وصل إلى اسطنبول. وهناك قابل السلطان سليمان القانوني وشرح له ظروف أقطار شمال إفريقيا محذراً من أن استمرار استيلاء أسبانيا على وهران وبجاية وتونس، واحتلال طرابلس وجزيرة مالطة من قبل فرسان القديس يوحنا من شأنه أن يجعل السيادة للمسيحيين على سواحل إفريقيا الشمالية، وأنه يخشى من إمكانية تحالف يتم بين القوى المسيحية يحدد إمكانية عودتهم إلى الشرق واستعادة جزيرة رودس وجزر اليونان وسواحل فلسطين، ومن ثم يتوجهون براً إلى مصر. وقد اقتنع السلطان بوجاهة هذه المبررات، وأمر بتوجيه الأسطول بقيادة سنان باشا ليتنزع مالطة من هيمنة الفرسان مع تفويض بالاستيلاء على طرابلس<sup>(12)</sup>. وقد كان بالأسطول أيضاً درغوث ريس، واستطاع الأسطول العثماني الاستيلاء على طرابلس في صيف 1551م. وتم تعيين مراد آغا، القائد العثماني المقيم بتاجوراء منذ حوالي سنة 1535، واليا على البلاد. وقد اهتم مراد آغا بتحسين مدينة طرابلس، احتياطاً للغارات المتوقعة في المستقبل. وقد شملت إجراءاته الدفاعية جزيرة جربة. وكان لديه من المبررات ما يدفعه إلى الشك في أن شيخ الجزيرة ما زال يحتفظ بعلاقات مع الأسبان عن طريق نائب الملك في صقلية، حيث كان يطلب منهم المساعدة ويعرض عليهم تسليم الجزيرة، وكان ينكر وجود مثل هذه العلاقة بينه وبين الأسبان<sup>(13)</sup>.

ويشير روسي إلى أن الوثائق الأسبانية لذلك الوقت تذكر أن مراد آغا قد أمر في 29 مارس بقتل أحد قادة جربة المدعو ماتيرا (Matera)، وأن مراد يضع الخطط لمواجهة النفوذ الأسباني في تونس. ويبدو من الترجمة الأسبانية لرسائل مراد آغا وسنان باشا قائد الأسطول العثماني إلى سلطان تونس بتاريخ يونية 1552 أن الأتراك العثمانيين كانوا يفكرون في مهاجمة المهدية وحلق الوادي لطرد الأسبان، وقد ذكر مراد آغا لسلطان تونس، بقرب وصول الأسطول إلى المياه التونسية، وأنه تلقى الأوامر للحاق به والاستعداد لذلك، وجمع المؤن ووسائل النقل والأخشاب اللازمة لوقاية المدفعية وإن نفس الأمر صدر إلى بيليربي الجزائر<sup>(14)</sup>.

وقد حاول درغوث باشا الذي خلف مراد آغا في حكم آيالة طرابلس تأكيد السلطة العثمانية في جربة عن طريق إرسال حملة عسكرية إلى هناك سنة 1558م، استخدم فيها بعض الفرسان من قبائل زوارة وأولاد شبل والسبعة. وقد حاول أهل الجزيرة الاستعانة بأحمد بن حسن الحفصي لرد الحملة، ولكنه لم يتمكن من تلبية طلبهم نظراً للمشاكل التي كان يعاني منها، مما مكن درغوث من هزيمة أهل الجزيرة والاستيلاء عليها. ويبدو أن درغوث باشا كان يحاول امتصاص نفمة أهل الجزيرة

ونزعتهم إلى الاستقلال عندما عين عليهم مسعود السمويني، أحد أعيان الجزيرة<sup>(15)</sup>. ولكن أهل جربة عاودوا الاتصال بسلطان تونس الحفصي، وطلبوا منه مدعم بالعون والمساعدة. وعندما علم درغوث بهذه الاتصالات عاد في السنة التالية إلى جزيرة جربة وقتل الجماعات المتزعة لهذه الحركة؛ ومنهم الشيخ داود التلاتي، وصادر أموالهم، واضطرت مجموعات أخرى من أهل الجزيرة إلى الهجرة خارجها، بعد أن عين درغوث عليها حاكماً تركياً يتبعه مباشرة<sup>(16)</sup>.

لقد قام القائد التركي الجديد واسمه (غازي مصطفى بك) بترميم برج «حومة السوق» وأجرأ إضافات فيه وقد سجل تاريخ الانتهاء من هذه الزيادات على لوحة رخامية، وقد جاء فيها :

«بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد وآله. جدد هذا القشتيل المبارك بعد افتتاحه عن أمر مولانا السلطان أبي الفتوح سليمان خان بواسطة الباشا أبو المواهب درغوث عن يدي القائد المكرم غازي مصطفى بك سنة ثمانية وستين وتسع مائة» (1560/1559م)<sup>(17)</sup>.

لقد كان من نتائج معاهدة كاتو كامبريسيس (Cateau Cambresis) بتاريخ 3 أبريل 1559م والتي عقدت بين أسبانيا وفرنسا وإنجلترا، أن وضعت حدا للصراع بين فرنسا وأسبانيا، وخلف شارل الخامس على الحكم فيليب الثاني، الذي وضع مسألة إيقاف التهديد العثماني في شمال إفريقيا على رأس قائمة سياساته، وكان المرشد الأكبر لهيئة فرسان مالطة، يحثه باستمرار على استعادة طرابلس من العثمانيين. وهكذا تكونت حملة صليبية جديدة اشتركت فيها قوات من أسبانيا، جنوه البابوية، ومالطة، وغيرهم، وتذكر بعض المصادر أن فرنسا المتحالفة مع الدولة العثمانية، والبندقية التي تعهدت بالوقوف على الحياد قد اشتركتا في إقرار الحملة التي كانت تستهدف بالأساس استعادة مدينة طرابلس. وكانت الخطة تقضي في حالة نجاح احتلال المدينة أن يترك بها أسطولاً مالطاً وصقلية، ليقوما بمنع السفن العثمانية من الوصول إلى غرب المتوسط، مما يعزل الجزائر، ويسهل بالتالي استعادتها للصليبيين وإخراجها من حوزة العثمانيين. ولكن أسطول العدو لم يتمكن من الانزال في طرابلس لأسباب تتعلق بالخلاف بين أطراف الحملة وللظروف المناخية في البحر، فتوجهت الحملة لاحتلال جربة في فبراير 1560م<sup>(18)</sup>.

وكان لدرغوث باشا في الجزيرة ستائة مسلح ومائتا جندي، وبعض القوات المحلية انسحب هؤلاء للقلعة وأخذوا في مناوشة العدو، وإزعاجه بغارات مفاجئة كانوا يشنونها عليه. بيد أن العدو تمكن من شن هجوم شامل في 8 مارس، استمر أربعة أيام، وانتهى بالاستيلاء على القلعة وتوقيع الصلح مع الشيخ مسعود صالح السمويني. وقد قام النصارى الغزاة بعد ذلك بترميم القلعة وأضافوا للتحصينات الموجودة فيها أربعة أبراج أخرى<sup>(19)</sup>. وبعد الصلح بين السمويني والغزاة، بعث أهل الجزيرة إلى الدولة العثمانية يشرحون ما حل بهم<sup>(20)</sup>.

بيد أن الأتراك العثمانيين الذين كانوا على علم بأخبار الحملة منذ السنة الأولى السابقة، قد بدأوا في تجهيز حملة كبيرة لاستعادة الجزيرة قبل أن يصل الوفد الجربي، فقد جاء في رسالة إلى درغوث باشا، مستخرجة من سجل الشؤون الهامة الديوان الهمايوني، منشورة في مجلة مجمع التاريخ العثماني، عدد 2، رداً على رسالة كان درغوث قد بعث بها ويخبر فيها بتجميع الأساطيل المسيحية بهدف مهاجمة مدينة طرابلس، يؤكد السلطان، أن طرابلس شأنها شأن بقية الولايات العثمانية، وإن حراستها والدفاع عنها تأتي في المراتب الأولى من الأهمية، وأنه قد جهز «مراكب شبيهة بالكواكب وسقناها بأدوات القتال وبالعساكر لمنازلة الأعداء وبعثناها سراعا اليكم، وإن شاء الله الأعز ستصلكم قريباً». ويذكر السلطان في رسالته أيضاً : «قد كتبنا رسائل كريمة إلى مشايخ عربان ولا يتكلم وإلى علمائها وأعيانها ليناصروكم ويظاهروكم عندما يهاجم العدو تلك الولاية.. أن تبادر إلى توحيد جهودك مع قبائل العرب ومشائخها ومع غيرهم من سكان البلاد وتكونوا متفقين قلباً وقالباً، وبلغهم

(15) نفس المصدر، محمد أبوراس الجربي، ص 112 — 113. شارل فيرو، ص 131. يذكر برنيا، ص 73 أن السبب في حملة درغوث على جربة هي رغبته في مد سيطرته على الجزيرة التي افتقدت من ولايته إلى سيطرة ملك القيروان الذي يمثل في الجزيرة حاكم يسمى سليمان وقد أتم له ما أراد.

(16) محمد أبوراس الجربي، ص 114، شارل فيرو، ص 113.

(17) شارل فيرو، ص 131 — 132، ولمعلومات أوفى حول برج الغازي مصطفى، أنظر : جمعية صيانة جزيرة جربة، برج الغازي مصطفى، مدين، مطبعة الجنوب، (أكتوبر 1977).

(18) عزيز ساح، ص 55 — 62، برنيا، ص 73 — 75.

(19) عزيز ساح، ص 62.

(20) محمد أبوراس الجربي، ص 115.

(11) للمزيد من المعلومات عن حياة درغوث باشا ومحاولة أسره ونجاحه في فك الحصار، انظر : عزيز ساح : الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية، ترجمة : عبد السلام أدهم — بيروت : دار لبنان للطباعة والنشر (1969) ص 23 — 47. انظر أيضاً : شارل فيرو ص 100 — 101. مصطفى خوجة تاريخ فزان، حققه وقدم له وعلق عليه : حبيب وداعة الحسناوي، طرابلس : مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية (1979) ص 41 — 42. برنيا : ص 43 — 48.

(12) عزيز ساح، شارل فيرو، ص 100 — 103، برنيا، ص 48.

(13) روسي، ص 183.

(14) نفس المصدر، ص 184.

الأوامر الكريمة وأُسع لاستمالتهم الى جانبك وأحرس ليلا ونهارا الأماكن الساحلية من أن يصلها أذى الكفار...»<sup>(21)</sup>.  
وقد أرسلت مناشير الى مشايخ وعلماء طرابلس، وجربة، ومع تلك الرسائل أرسلت خلع سلطانية الى المشايخ المذكورين لمزيد من التكريم.

وبحلول فصل الشتاء تمت الاستعدادات العثمانية، وكتب السلطان الى كافة الأمصار، ولحاكم تونس الحفصي أيضا المتعاون وخلال فصل الشتاء تمت الاستعدادات العثمانية، وكتب السلطان الى كافة الأمصار، ولحاكم تونس الحفصي أيضا المتعاون مع الأسبان، بأن يقدم العون الى درغوث باشا، وقد أسندت القيادة العامة للأسطول الذي قدرت قواته بـ 120 سفينة،

لييالة باشا.  
وقد أبحر الأسطول الى جزيرة جربة التي وصلها يوم 15 شعبان 967 هـ، (14 مايو 1560 م) واشتبك مع العدو في معركة استمرت ثلاثة أيام تكبد فيها العدو خسائر كبيرة في سفنه واضطر الى الاحتماء بالقلعة. وفي 20 شعبان (19 مايو) وصل درغوث باشا، الذي لم يشترك في المعركة الأولى، وتباحث مع بيالة باشا في الحركات الحربية المقبلة، وكيفية انزال الجنود الى البر وانزال الهزيمة التامة بالعدو، وبدأت اجراءات التضييق على العدو، واحكام الحصار في البحر، وبعد فترة دامت حوالي أربعة أشهر تمكن العثمانيون من هزيمة الأعداء، وتمكنوا من دخول القلعة عنوة، وقد بلغ عدد الأسرى أربعة آلاف، أما خسائر العدو في السفن والأرواح، فقد كانت فادحة جدا<sup>(22)</sup>. ومنذ ذلك التاريخ خضعت جربة للعثمانيين بصورة نهائية وأصبحت جزءا من المناطق التابعة لآيالة طرابلس.

وقد ولي درغوث على الجزيرة الشيخ موسى بن جلود وهو أول المشايخ الجلوديين الذين حكموا الجزيرة بعد السومنيين<sup>(23)</sup>.

ويذكر محمد بوراس مجموعة من الروايات والأحداث في العلاقات بين طرابلس وجربة، بعد وفاة الشيخ مسعود السوموني وتعيين موسى بن جلود، منها أن الشيخ عمر بن موسى بن جلود الذي خلف أباه سنة 1007 هـ (1598 — 1599 م) قد سافر الى طرابلس باذن من درغوث باشا وأنه في فترة غيابه قام أهل الجزيرة بانقلاب أبيض ضده وعزلوه، ولولا مكانه عبد الله بن الحاج يونس البرجي... الخ<sup>(24)</sup>. ومن المعروف أن درغوث باشا قد استشهد في حصار مالطة سنة 1565 مما يثير الشك في صحة روايات بوراس، ويظهر الحاجة الى ضرورة تمحيص هذه الروايات وتدقيقها، والأحداث بحاجة الى المزيد من التفصيلات والمقارنات.

ان المصادر التي بين أيدينا تفتقر الى كثير من المعلومات حول العلاقات بين طرابلس وجربة في النصف الثاني من القرن السادس عشر خاصة بعد اتمام السيطرة العثمانية على تونس سنة 1574 م، وتحولها الى آيالة عثمانية، ولكنها تشير الى أن جربة ظلت تتبع آيالة طرابلس. فعندما أتم الأتراك العثمانيون سيطرتهم على شمالي افريقيا، أقاموا به ثلاث آيالات هي طرابلس، تونس، والجزائر، وتبع السلطان عن طريق كابودان باشا، ولم تكن رقعة هذه الآيالات أو الأوجاق محددة تحديدا دقيقا، فأوجاق طرابلس مثلا كانت حدوده الغربية تمتد حتى قابس وصفاقس وجزيرة جربة<sup>(25)</sup>.

كما تشير الدلائل على أنه حتى سنة 985 هـ (1577 م) كانت طرابلس وتونس يديرهما في بعض الأحيان وال واحد، وفي بعض الأحيان يكون لوالي الجزائر الاشراف على الآيالات الثلاث. وكانت تشترك في كثير من الأعمال الجماعية أو التي تطلبها الحكومة العثمانية، كالمساهمة في الحروب التي يخوضها الأسطول العثماني ضد السفن المسيحية المعادية، كالاشتراك في معركة لابانتو سنة 1571 م، كما وأن طرابلس قد اشتركت في حملة احتلال تونس سنة 1574<sup>(26)</sup>. غير أن آيالت طرابلس وتونس، مرتا خلال العقدين الأخيرين من القرن السادس عشر والعقد الأول من القرن السابع عشر بفترة من الاضطرابات المتواصلة بسبب انتشار الفوضى في الأوساط الانكشارية وتوليهم زمام الأمور، وزيادة تعدياتهم على المواطنين، وعدم احترام السلطة والقانون. وقد عبر عن فوضى الانكشارية في طرابلس، المؤرخ الطرابلسي، ابن غلبون بقوله: «وتغلب الجند على أمر

(21) عزيز سامح، ص 62 — 69، برنيا ص 76.

(22) نفس المصدر، ص 69 — 76.

(23) محمد أبوراس الجربي، ص 114، وقارن مع روسي ص 186، الذي اعتمد على رواية كات الذي يذكر أن درغوث استولى على الجزيرة سنة 1556، وترك على قيادتها أولوج علي (علج علي) وثبت في مشيختها الشيخ موسى بن جلود، أخ عثمان بن جلود، وهو من المخلصين له الحائزين على ثقته، ونقل معه الشيخ سليمان الذي أعده بعد ذلك.

(24) نفس المصدر، ص 115 — 116.

(25) عزيز سامح، ص 54 — 86 — روسي، ص 217 — 268.

(26) نفس المصدر.

البلد، فلم يكن لواليتها من قبل السلطان تصرف، واضطرب أمرها وفسد نظام الملك وكثر المخرج في الرعية»<sup>(27)</sup>. وقد انعكس تردّي الأحوال في انتشار رقعة الثورة بين سكان الدواخل، بسبب ظلم وتعسف الأتراك وبسبب الأساليب القاسية التي كان يتبعها الجنود في تحصيل الضرائب، فالفرق المناط بها جمع الضرائب كانت تحتفظ بالجزء الأكبر منها لحسابها الخاص وتستعمل وسائل جائرة في تقديرها وتحصيلها مما أجبر الكثير من سكان جزيرة جربة في عهد الوالي جعفر باشا الذي يعتبر عهده بداية فترة الفوضى والاضطرابات، الى هجر جزيرتهم، وتشتوا في مختلف البقاع، هربا من جورته وتعسفه. ونثار أهالي طرابلس بسبب الضرائب العالية. وقد أجبرت هذه الثورات جعفر باشا الى تخفيض الضرائب بواقع النصف<sup>(28)</sup>. وقد أورد عزيز سامح عدة تقييدات من سجل مهام الديوان الملكي وسجل الديوان الهمايوني بما يفيد باستسلام هذه الشكاوي وتوجيه تعليمات الى أمير الأمراء في طرابلس وتونس باصلاح هذه التجاوزات واحقاق الحق وانصاف المظلومين<sup>(29)</sup>. وفي نطاق هذه الاصلاحات تم عزل جعفر باشا، وتكوين لجنة من أمير أمراء طرابلس الجديد وقاضي طرابلس وجربة للتحقيق في هذه الشكاوي وارجاع الأموال المغتصبة الى أربابها.

وقد جاء في أمر تكليف اللجنة المذكورة: «بلغني أن بعض القواد حرضوا أمير أمراء طرابلس السابق (جعفر باشا) فظلم واعتدى على الشخصين المدعويين الحاججي وسيدي علي الشريف من أعيان البلاد وصادر أموالهما، كما أن القواد المدعويين بن عيسى قائد جربة، وعلي قائد صفاقس وحسن قائد قابس وسنان قائد الجبل الأبيض يغتصبون أموال المسلمين بدون حق، وأن أمير الأمراء المشار إليه لم يتبع الطريق القويم في تعيين آغاوات الانكشاريين ونوابهم واختلت شئون ممالكي المذكورين. وبما أنني غير راض عن ظلم رعاياي، فيجب ارجاع ما اغتصبه أمير الأمراء والقواد لأربابه والاهتمام بتنظيم شئون عسكري»<sup>(30)</sup>.

بيد أن تعليمات السلطان لم تجد من ينفذها، وازاء تعسف واستغلال الانكشارية للفتات الاجتماعية الفقيرة التي تشكل الفئة الغالبة في المجتمع، الذين حرموا جزءا من أراضيهم ومساكنهم، وجدت دعوة يحيى بن يحيى السويدي، الذي ادعى أنه المهدي المنتظر، وأعلن الثورة ضد السلطة التركية في طرابلس في سنة 1587/1588 م، استجابة واسعة في أوساط الجماهير الشعبية التي كانت تتطلع للخلاص من الأوضاع التي تعاني منها واتسعت رقعة ثورته لتشمل جميع أرجاء الآيالة حتى كادت تعصف بالوجود التركي بطرابلس، فقد حاصرت قوات الثورة طرابلس لمدة تزيد على العام ولكن دون أن تتمكن من احتلال المدينة لأن المدينة كانت تعتمد في تموينها على جربة. وقد ترك يحيى بن يحيى قواته تحاصر طرابلس واتجه الى جربة في محاولة لاحتلالها ومنع امدادات التموين التي تأتي عن طريقها لطرابلس، بيد أنه يبدو أنه فشل في تحقيق هدفه. ومع ذلك لم تستطع الدولة العثمانية القضاء على الثورة، إلا بعد أن جندت قوات طرابلس وتونس والجزائر واستعانت بالأسطول العثماني في البحر المتوسط. وقد استمرت الثورة لمدة ثلاث سنوات<sup>(31)</sup>.

وبعد القضاء على ثورة يحيى بن يحيى السويدي سنة 1590 م، يلف الغموض تاريخ طرابلس مرة أخرى، وتبخل المصادر التي بين أيدينا بمدنا بمعلومات وثيقة وأكيدة. وقد استخرج فيرو بعض أخبار هذه الفترة من تاريخ جربة. حيث أقام ابراهيم باشا (1595 — 1600 م) مذبحا في تلك الجزيرة سنة 1598 م، وسلخ جلد عبد الله البرجي<sup>(32)</sup>.

ولعل فيرو يشير الى ما أورده محمد بوراس<sup>(33)</sup> من أنه في سنة 1007 هـ (1598 م) سافر شيخ الجزيرة عمر بن موسى الى طرابلس باذن من درغوث باشا<sup>(34)</sup> وأنه في أثناء غيابه اتفق أهل الجزيرة على عزله من المشيخة ولولا مكانه عبد الله بن

(27) ابن غلبون، التذكار في من ملك طرابلس وما كان بها من الأخبار، ط 2، تحقيق الطاهر أحمد الزاوي، طرابلس — ليبيا، مكتبة النور (1967) ص 101.

(28) روسي، ص 198 — 199.

(29) عزيز سامح، ص 86 — 106، وانظر أيضا للكاتب: «حملة رمضان باي على غدامس سنة 1018 هـ 1609 م كما يصورها مخطوط غدامسي»، مجلة البحوث التاريخية، السنة الأولى، العدد الأول (يناير 1979) صفحة: 69 — 82.

(30) نفس المصدر.

(31) نفس المصدر، برنيا، ص 97. ولمعلومات اضافية أخرى حول ثورة يحيى بن يحيى سويدان، انظر، محمد الأسطي: وثورة يحيى بن يحيى السويدي أو سويدان مجلة البحوث التاريخية السنة الرابعة العدد الأول (يناير 1982).

(32) شارل فيرو، ص 64 — 65.

(33) محمد أبوراس الجربي، ص 115 — 116.

(34) راجع الهامش رقم 24 أعلاه.

## LES RELATIONS COMMERCIALES ENTRE DJERBA ET LA REPUBLIQUE DE VENISE A LA FIN DU MOYEN-AGE

B. DOUMERC

Les commerçants de la République de Venise ont fréquenté les côtes de l'Ifriqiya tout au long du Moyen-Age. Le commerce qui se développe au XIV<sup>e</sup> siècle et surtout pendant le XV<sup>e</sup> siècle permet à cette région et particulièrement à l'île de Djerba de jouer un rôle dans les réseaux du commerce vénitien en Méditerranée. Les Vénitiens, par leurs projets de collaboration, ont comblé les souhaits d'expansion des monarques Hafsides du XV<sup>e</sup> siècle : Abu Faris (I396 - I435) et Uthman (I435 - I488). Désireux d'accroître le rayonnement économique de l'Ifriqiya ces deux émirs lancent des appels répétés aux puissances occidentales (I). Les Vénitiens sont parmi les premiers à répondre à leurs avances en créant la "mudda" de Barbarie en I436 et en organisant la "muda" du Trafego en I460. A la différence des grands Etats riverains de la Méditerranée, la Catalogne, Gênes, la Sicile par exemple, l'intérêt que porte Venise à l'île de Djerba s'est toujours limité au niveau économique. Jamais les Vénitiens n'ont envisagé de prendre pied en Ifriqiya comme ils le firent en Roumanie ou en mer Egée dans le but d'installer des comptoirs dépendants de l'Empire. La place stratégique indéniable de l'Ifriqiya et de Djerba n'a pourtant pas échappé aux dirigeants de l'Etat. Toutefois, les patriciens ont toujours pensé que l'entente politique avec les Hafsides de Tunis serait le plus sûr moyen d'asseoir le développement des échanges économiques entre la cité des Doges et l'Ifriqiya. Depuis le XIII<sup>e</sup> siècle, en I23I très précisément, le sénat a autorisé un

consul à s'établir à Tunis pour défendre les intérêts de la communauté des marchands (2). Mais il faut attendre 1425 et la grande poussée vénitienne dans cette région pour noter la présence d'un consul à Malte "devant les progrès du commerce" (3). Ce n'est qu'à la fin du XV<sup>e</sup> siècle, en 1476, qu'un vice-consul est élu à Tripoli (4). Cependant il n'y a pas de trace de l'instauration d'un consulat vénitien à Djerba.

L'île et ses richesses ne laissent pas indifférents les marchands de Venise et l'absence d'un consul ne correspond pas à une marginalisation de l'île dans l'ensemble des relations économiques que Venise entretient avec l'Ifriqiya. Exportatrice de produits agricoles très recherchés comme le grain et l'huile, de matières premières appréciées comme les cuirs et le sel, les navires de Venise effectuent régulièrement des escales sur les rivages. Les marchands et les patrons qui naviguent sur les navires désarmés savent tirer profit de l'achat et de l'exportation des productions locales. Un des meilleurs exemples, très significatif est celui de Vielmo Querini qui transmet des instructions au capitaine d'un de ses navires en ces termes : "A Syracuse tu chargeras une bonne cargaison de blé, le meilleur que tu trouveras... et tu iras à Djerba. Là tu le vendras et tu achèteras de l'huile et puis tu rentreras à Venise. Si bon te semble tu pourras aller à Sfax et à Mahdia". Ce voyage est réalisé en 1458. Une autre année, le marchand vénitien déclare à son "facteur" : "Vas à Djerba et achètes tout l'or que tu pourras" (5). En 1496, un voyageur vénitien de passage dénombre cinq navires dont "un de Sclavons, un de Biscajens et trois de Syracuse" (6). Piloti déjà, décrit le départ de Tunis Vers Alexandrie de huit à dix bateaux chargés de couvertures de laine blanche qui sont recueillies annuellement dans les villes du golfe de Gabès (7). Il serait inutile de revenir sur le commerce des céréales pratiqué entre Djerba et Venise pendant le Moyen-Age. Les traités conclus avec les Hafside incluent toujours la possibilité accordée aux Vénitiens d'acheter du blé pendant les disettes (8). Au XV<sup>e</sup> siècle, les progrès de l'avance turque en Méditerranée orientale modifient les circuits d'approvisionnement en céréales de la République. Désormais, la Romanie est moins fréquentée au profit de la Calabre, de la Sicile et de l'Ifriqiya (9). Il en est de même pour l'huile qui constitue sans doute la principale richesse de Djerba. Les émirs de Tunis sont très actifs dans la commercialisation de cette huile qui est exportée dans toute la Méditerranée comme ils le firent pour les ventes

d'or et d'esclaves. Le commerce du sel étant depuis toujours réservé aux souverains, les Vénitiens doivent respecter des conditions très précises dans les transactions (10).

Il ne fait aucun doute que la plus grande part du commerce vénitien est réalisée par les navires désarmés mais au XV<sup>e</sup> siècle la tendance semble s'inverser au profit des galères d'Etat. En 1450 un projet qui n'aura pas de suite prévoit qu'une "muda" supplémentaire à celle de Barbarie rejoint Cadix puis au retour, en faisant escale dans tous les ports de Barbarie, se dirige vers Alexandrie en longeant l'Afrique (11). Ce n'est qu'en 1460 que cette ébauche devient réalité avec l'apparition de la "muda" du Trafego à la grande satisfaction des Maghrébins (12). Le but essentiel de cette nouvelle ligne est de transporter les marchands musulmans faisant du cabotage "ad traficum Barbarie et Alexandrie". Le parcours prévoit des escales en Ifriqiya : Tunis, Djerba et Tripoli et des passages à Alexandrie, Beyrouth et Modon (13).

Grâce à cette innovation Djerba se trouve directement et régulièrement reliée aux grands centres commerciaux de la Méditerranée Orientale. Les adaptations nombreuses du trajet type défini par le sénat vénitien pendant les délibérations permettent néanmoins de dégager quatre phases principales :

Première étape : 1460 - 1465 : Trois galères font un voyage annuel de Tunis à Alexandrie.

Deuxième étape : 1466 - 1473 : Interruption due à la guerre veneto-turque, de 1463

Troisième étape : 1474 - 1480 : Deux galères font un voyage et demi comme suit : Modon, Tunis,

Quatrième étape : 1481 - 1498 : Trois galères font deux voyages complets, aller - retour (14).

A chaque voyage le convoi fait escale à Djerba. Les marchands de l'île et ceux des villes côtières de golfe de Gabès ont ainsi une flotte de transport à leur disposition. Les eaux peu profondes ne sont pas un obstacle à la navigation des galères puisque leur construction les autorise à naviguer sur les hauts fonds. Séduits par les garanties juridiques et par des prix de nolisement assez bas, les négociants préfèrent utiliser les galères de la République, car Génois et Catalans inspirent de la crainte et de la méfiance. Les exportations d'huile, de tapis et de burnous constituent l'essentiel

du volume des marchandises embarquées à Djerba (15),

Toutefois l'escale ne tient pas une place prépondérante parmi les centres commerciaux desservis par la "muda" du Trafego. En effet, en règle générale ce n'est pas l'ensemble du convoi qui fait escale à Djerba mais une seule galère qui profite du temps d'escale des autres à Tunis pour aller recueillir les nolis à Djerba. A la fin du XV<sup>e</sup> siècle un voyage du Trafego Tunis - Alexandrie dure deux mois et demi environ avec un temps d'escale suivant :

|        | Syracuse | Tunis | Tripoli | Alexandrie (16) |
|--------|----------|-------|---------|-----------------|
| Aller  | 2 jours  | 15    | 15      | 28              |
| Retour |          | 7     | 7       |                 |

Après 1481 le sénat décide que deux voyages complets seront effectués tous les ans à la grande satisfaction des Maghrébins. Les difficultés d'exploitation des "mude" du Trafego ne permettent pas toujours de réaliser cet objectif. Dans les cas difficiles, le premier voyage est effectué par la "muda" et le second est accompli par une "muda" de renfort organisée de la sorte : une galère est ajoutée à la "muda" de Beyrouth et deux viennent renforcer la "muda" d'Alexandrie avec mission de passer par la Barbarie avant de rejoindre le Levant (17). Cette formule est retenue de 1487 à 1495 mais les marchands d'Ifriqiya ne sont pas satisfaits par ces bouleversements qui ne garantissent plus des passages réguliers et ponctuels. Les relations entre les émirs de Tunis et le Sénat vénitien se dégradent rapidement. De plus l'avance turque qui se concrétise par l'installation de flotilles de corsaires en Tripolitaine décourage les sujets de la République (18). Les galères fréquentent de moins en moins les côtes de l'Ifriqiya après 1495 et les autorités exercent des représailles à l'encontre des Vénitiens. En 1496, Jacomo Marcello, patron d'une galère du Trafego se plaint qu'à Djerba il soit réparti "sans un sou de nolis car le roi a interdit aux maures et aux juifs de charger sur les galères" (19).

En fait ces mesures auront l'effet contraire à celui qui était recherché. Loin de céder aux pressions des Hafsiides qui réclamaient plus de navires et plus de voyages vers le Levant, les Vénitiens lassés par les difficultés vont se retirer peu à peu de l'Ifriqiya. L'île de Djerba qui avait profité de la présence vénitienne pour accroître son développement économique, se trouvait désormais isolée des circuits commerciaux de la

Méditerranée, La République n'a pas vraiment hésité à interrompre la "muda" du Trafego car les problèmes d'organisation et d'exploitation de cette ligne étaient nombreux. Parmi ceux-ci on peut retenir deux exemples révélateurs,

Le premier concerne la bonne insertion de la "muda" dans l'ensemble des rotations des galères d'Etat. Le risque de concurrence est évident entre les "mude" du Trafego, d'Alexandrie et de Beyrouth. Le problème est énorme quant la rareté des marchandises oblige les patrons à lutter dans l'illégalité pour obtenir les marchés avec les Musulmans. A la fin du XV<sup>e</sup> siècle les incidents sont nombreux, en particulier à Alexandrie. Le capitaine Zorzi da Canal est suspendu à vie de tout commandement pour avoir chargé ses galères en dehors du temps autorisé par le Sénat (20). Les "mude" du Trafego et d'Alexandrie se retrouvent à quai en même temps et les négociants Maghrébins et Egyptiens profitent de la rivalité des patrons vénitiens pour imposer des prix plus élevés ; le consul dénonce ces pratiques qui nuisent à l'intérêt de la république en ces termes "Nos marchands, dans l'espoir de voir arriver les galères du Trafego retardent le chargement pour tirer profit de la concurrence" (21). Cette plainte officielle ne changera pas grand chose car jusqu'à l'arrêt de la ligne du Trafego le consul vénitien d'Alexandrie signale les entorses au règlement qui se multiplient après 1490.

Le second problème est lié à la vocation de la ligne du Trafego ; les patrons vénitiens doivent se mettre à la disposition de leurs clients musulmans et en réalité ils ne le font pas toujours de bonne grâce. Le sénat, à plusieurs reprises, réclame un effort de la part des Vénitiens puis durcit sa position en exigeant la réparation des torts causés aux musulmans embarqués sur les galères de la République (22). Peu à peu les contacts s'améliorent mais la cohabitation reste difficile.

De plus, les marchands musulmans reprochent aux Vénitiens de ne pas assurer une protection efficace contre les attaques des Chevaliers de Rhodes. Ceux-ci accusent le sénat de collaborer avec les Infidèles et harcèlent les galères de commerce. En 1464, la prise de trois galères du Trafego provoque une immense émotion dans tous les Etats musulmans. Face à cette menace, les autorités décident d'interdire le passage à Rhodes et ce n'est qu'en 1478 que tout rentre dans l'ordre.

C'est à cause de toutes ces difficultés que la République de Venise ordonne la suspension de la ligne du Trafego. En 1501, le patricien Luca Tron s'oppose fermement à la discussion d'un nouvel "incanto" (23). Afin de préparer les Hafsides à ce retrait, le sénat organise les deux derniers voyages en 1506 et 1507. Les patrons ne veulent plus partir vers l'Ifriqiya tant le danger est grand du fait de l'avance Turque. A partir de cette date, les relations officielles entre la République de Venise et les Hafsides de Tunis sont interrompues et le commerce est soumis à de grandes restrictions,

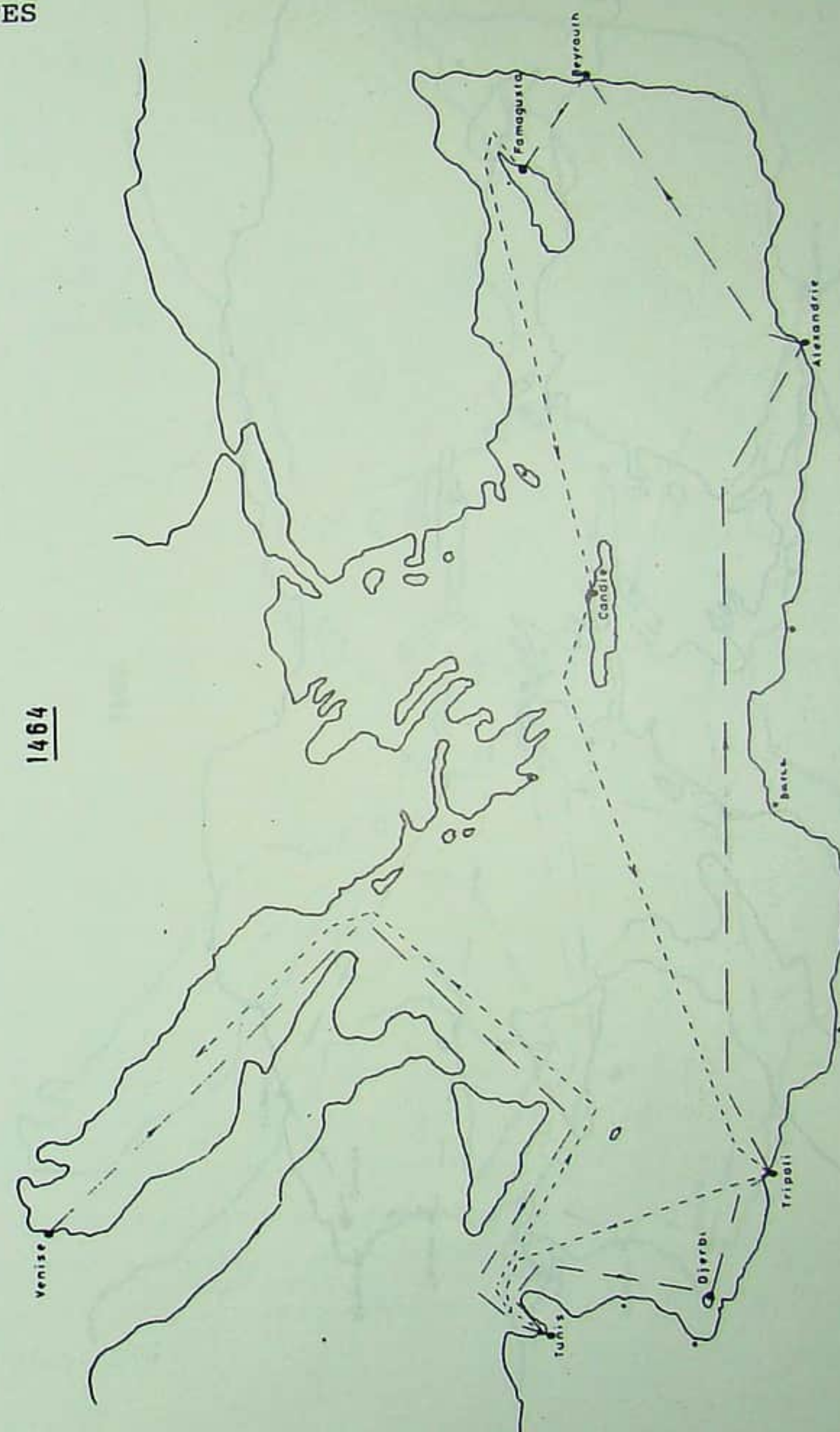
#### NOTES

- 1 - Voir : Brunschvig R. , *La Berbérie Orientale sous les Hafsides des origines à la fin du Moyen-Age*, Paris 1940
- 2 - Mas-Latrie de L. ; *Les traités de paix et de commerce*, p. 196 .
- 3 - Archivio di Stato di Venezia (A.S.V.) Senato Misti, reg. 55 f. 142 v°. C'est Francesco Gatto qui est élu,
- 4 - A.S.V. Notai Cancellerie busta n° 124 ; notaire Pietro Manzini,
- 5 - A.S.V. Procuratori di San Marco ; Miste busta n° 271
- 6 - Ibidem,
- 7 - In Ashtor E. : *The Venetian supremacy in levantine trade* p, 35,
- 8 - Mas-Latrie de L. : *Les traités de paix* p, 197 et A.S.V. Senato Marreg. 8 f. 7.
- 9 - A.S.V. Senato Misti reg, 60 f. 48 par exemple.
- 10 - Hocquet J.C. ; *Le sel et la fortune de Venise* T. I p. 150.
- 11 - A.S.V. Senato Mar reg. 3 f, 124 v°.
- 12 - A.S.V. Senato Mar reg, 6 f. 207.
- 13 - Voir : Doumerc B, *Venise et la Barbarie*, Thèse de 3° cycle, Toulouse 1981,
- 14 - A.S.V. Incanti dei galere ; registres I et II. Voir aussi Tenenti A. et Vivanti C, *Le film d'un grand système de navigation* . Les Annales E.S.C. 1961.
- 15 - A.S.V. Senato Mar reg, 12 f, 195 v° et Sanudo : *Diarii* I c, 326.
- 16 - A.S.V. M Senato Mar reg, 7 f, 41,
- 17 - A.S.V. *Incanti reg.* I f, 38,
- 18 - A.S.V. Senato Mar reg, 14 f, 121,
- 19 - Sanudo ; *Diarii* Tome I c, 326.
- 20 - Malipiero ; *Annali veneti* t. II c. 613,

- 21 - A.S.V. *Incanti dei galere reg.* I f, 131 v° .
- 22 - A.S.V. Senato Mar reg, 7 f, 147,
- 23 - Sanudo ; *I diarii*. T, III c, 1283,

#### CARTES

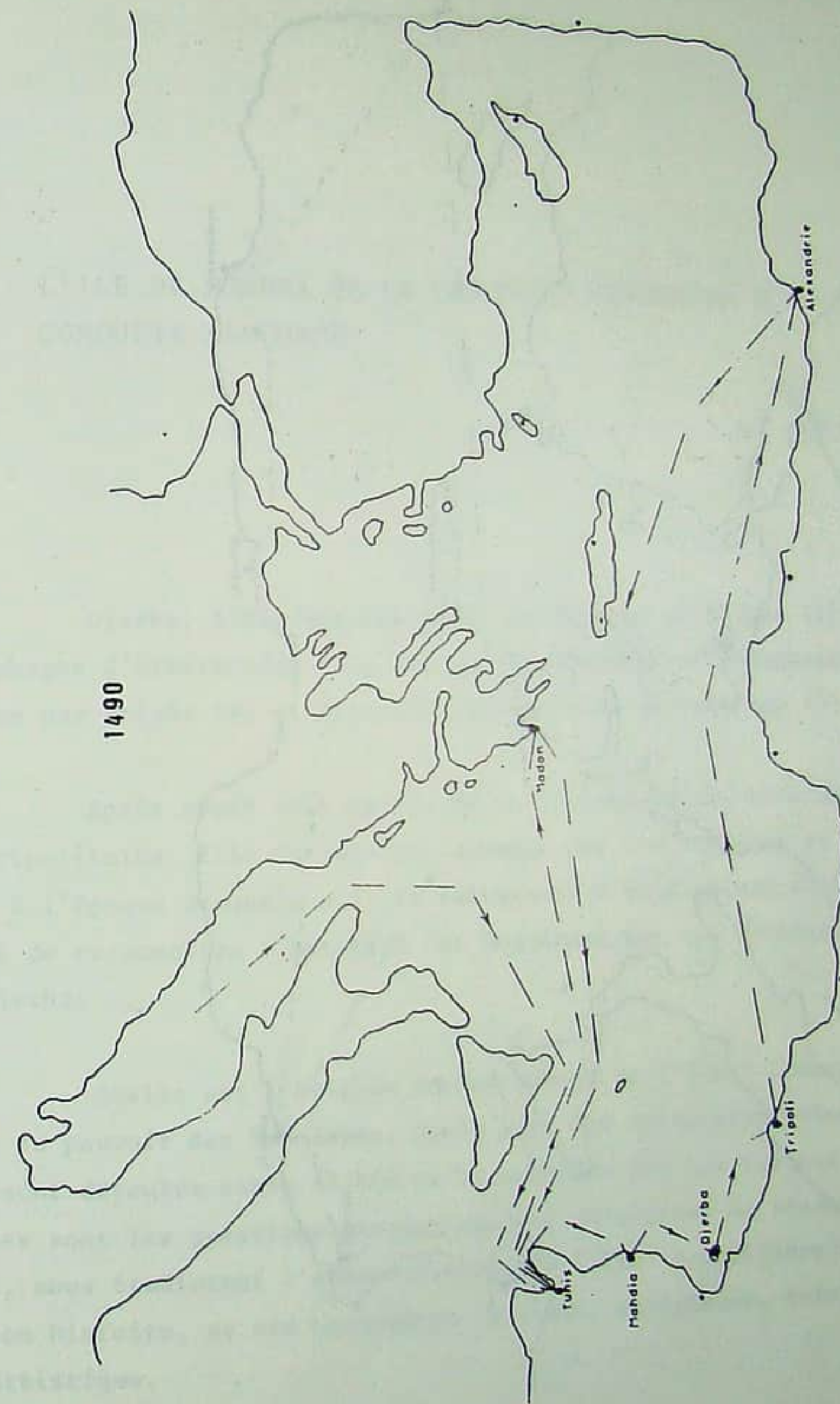
Muda du " Trafego " : Evolution du trajet.



Muda du " Trafego " : Evolution du trajet.



Muda du " Trafego " : Evolution du trajet.



1496



## L'ILE DE DJERBA DE LA CONQUETE MUSULMANE A LA CONQUETE ALMOHADE

R. BOUROUBA

Djerba, l'île des bas fonds du Périples de Scylax (1), l'île des Lotophages d'Erasthotele (2), fut appelée Pharos par Théophraste (3), Meninx par Polybe (4) et dépendit certainement de Carthage (5),

Après avoir fait partie de la Proconsulaire, elle appartient à la Tripolitaine. Elle fut ensuite soumise par les Vandales et les byzantins à l'époque desquels elle se rattachait à la province de Tripoli (6), avant de reconnaître l'autorité des Musulmans qui lui donnèrent le nom de Djerba.

Quelle est l'origine du nom actuel de l'île ? Comment tomba-t-elle au pouvoir des Musulmans. Quels sont les principaux événements qui s'y sont déroulés entre 47/667 et sa conquête par les troupes almohades ? Telles sont les questions auxquelles nous essaierons de répondre. Après quoi, nous étudierons l'administration de l'île aux différentes périodes de son histoire, sa vie économique, sociale, religieuse, intellectuelle et artistique.

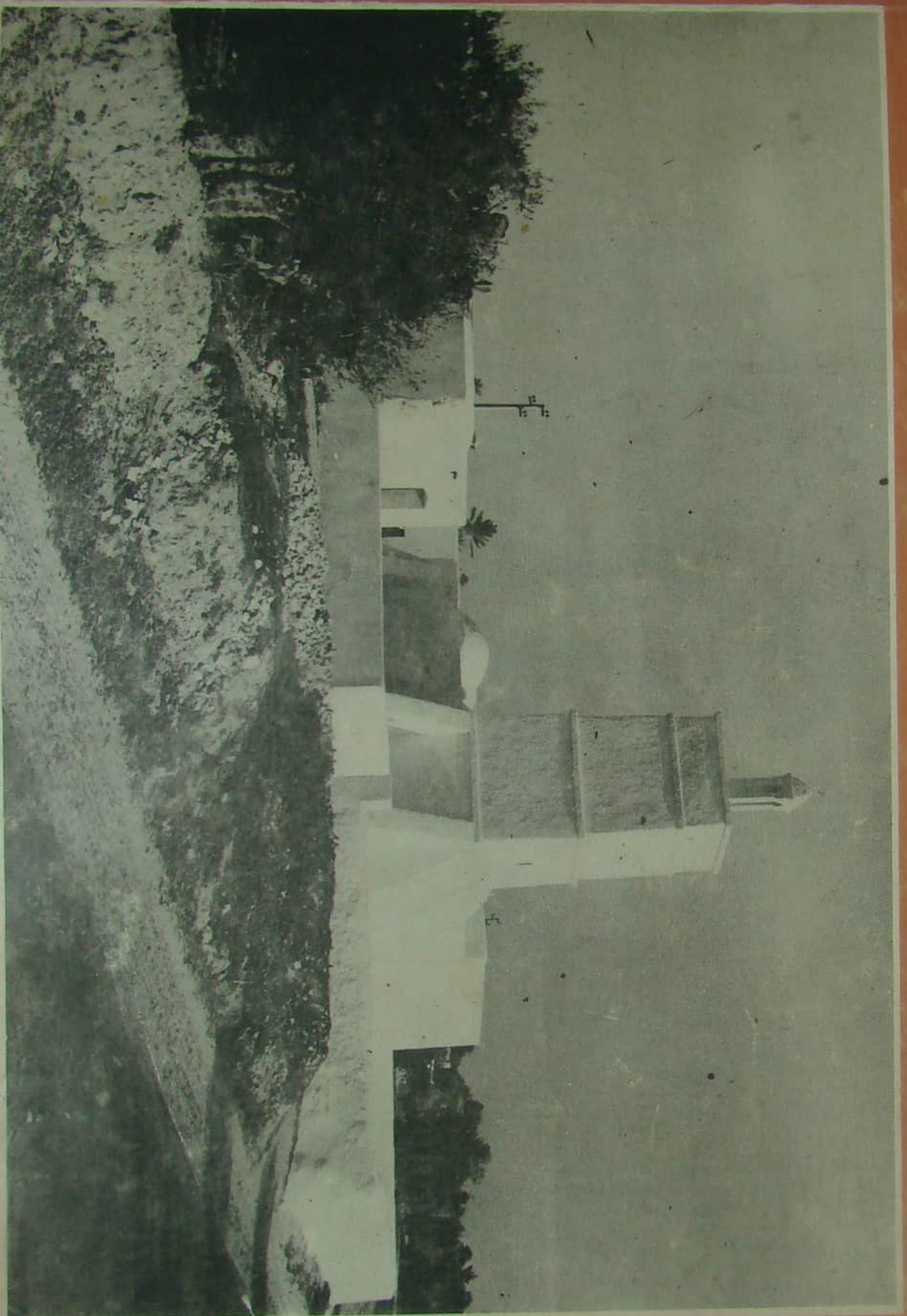
### I. ORIGINE DU NOM ACTUEL DE DJERBA

Si nous en croyons Ibn Khaldûn (7), Djerba serait le nom d'une

INSTITUT NATIONAL D'ARCHÉOLOGIE ET D'ART

ASSOCIATION POUR LA SAUVEGARDE DE L'ÎLE DE JERBA

**ACTES**  
**DU COLLOQUE SUR**  
**L'HISTOIRE DE JERBA**  
**(Avril 1982)**



**1986**